# فوكو ومفهوم السلطة

أحمد طريبق

## استهلال:

يكمن هدف هذا البحث في عرض نظرية ميشيل فوكو في السلطة التي قطعت بشكل جذري مع النظريات الكلاسيكية التي برزت في القرنين الثامن والتاسع عشر منذ مونتيسكيو إلى كارل ماركس، وذلك بالانتقال من الفهم القانوني السيادي الذي يجعلها مطابقة للدولة، كما يجعلها بمثابة ملكية تعود إلى هرم الدولة حيث السيادة المطلقة للفرد أو المجموعة، الأمر الذي ينتج عنه فهم غير متكامل وغير دقيق للسلطة يضع الباحث أو المفكر خارج تعقيداتها. وليس لدينا من شك، في أن تقريب هذا التصور للقارئ لهو ذو أهمية قصوى، علاقة بمسألة الدولة والمجتمع.

**« إذا لم يسمع داخل دولة ما صراخ نتيجة لأي نزاع، فتأكدوا أنه لا توجد حرية « (مونتيسكيو) (( Montesquieu, considérations**

يهمنا في هذه الدراسة أن نعرض بإيجاز التصور الذي قدمه ميشيل فوكو بخصوص مسألة السلطة، وذلك لأهميته القصوى؛ من جهة، لما يتضمنه هذا التصور الذي له علاقة حاسمة بمعاصرتنا حيث يدور التفكير الفلسفي فيها حول علاقة الإنسان المعاصر بقضايا الحاضر(الاقتصاد، السياسة، الأخلاق ...) ومن جهة ثانية، لما يمثله داخل نطاق الفلسفة السياسية. ولما أن هذا التصور لم يأخذ بعد حظه من التعريف والتحليل، فإننا نعرضه هنا لفتح نقاش واسع حول مسألة السلطة ومركزيتها في الفكر المعاصر والمجتمعات المعاصرة.

اتخذ مفهوم السلطة عند ميشيل فوكو نطاقا أوسع بالمقارنة مع النظريات الكلاسيكية عنها، بما في ذلك النظرية الماركسية، والحال أن هذا المفهوم يسكن معرفتنا وتصوراتنا وتفكيرنا وممارساتنا اليومية، بحيث إننا لم نعد نسائله، ومن ثمة، كانت أهمية تناول ميشيل فوكو لهذا المفهوم. فقد قام بتوسيعه إلى أقصى الحدود، وذلك لكي يبرز السلطة في تجلياتها القصوى وفي تسترها، حيث تمتد لتخترق قوانينها الداخلية. فعلى عكس الفرضية القمعية التي تنظر إلى الدولة بوصفها مركز قوتها الأساسية، قام فوكو بدراسة الأجساد الهامشية التي كانت تعتبر مجرد ظواهر ثانوية. مكنته هذه المنهجية، التي تصبح معها السلطة، مبعثرة على شكل أجزاء صغيرة متناثرة في شبكة معقدة من العلاقات التي تنبث بين جميع الأفراد، من اكتشاف نظام من خلال ما يبدو فوضويا وغير متماسك.

ليست السلطة متناغمة وموحدة، لذا يجب تحليلها لإبراز حقيقتها وآلياتها وتقنياتها والكيفية التي تباشر بها عملها؛ وما سعى إليه فوكو ليس هو صياغة نظرية عامة متكاملة ومنسقة عن السلطة، بغية لتعميمها على المجتمع والتاريخ وجعلها نظرية جاهزة مغلقة، بل سعى فقط لتحليلها في تعقيداتها. فالهدف هو تحليل السلطة، أي تعيين مجال تشكل علاقاتها، وتحديد الوسائل التي تسمح بالقيام بهذا التحليل. إنه عزل وتحليل شبكة العلاقات اللامتكافئة والموضوعة من طرف التكنولوجيات السياسية1 التي تضحي بمبدأ المساواة الذي أقره القانون والفلسفة السياسية منذ القرن الثامن عشر: « ليست السلطة مجرد سؤال نظري، ولكنها شيئا ينتمي إلى تجربتنا «[2].

1- يستعمل فوكو عدة من المفاهيم التقنية التي تشكل في حد ذاتها منظورية جديدة يتعين فهمها في سياقها الخاص بها.

2- Foucault M. : « Deux essais sur le sujet et le pouvoir » in parcours philosophique, p.299.

ينبغـي علينا، حسـب فوكو، وصفها كشـيء يظهر فـي زمان ومكان معينين، لكي نسـتنتج ونعيد بناء النظرية باسـتمرار. لكن إذا ما كانت السـلطة تعني مجموعـة علاقات مفتوحة ومتناسـقة إلـى حد ما، كما يرى فوكو، فإن المشـكل الـذي يواجهنا والذي ينبغـي الإعـداد له، هو شـبكة مـن التحليل تجعل علاقات السـلطة علاقات تحليلية، وذلك لأن السلطة ليست شـيئا عينيا نسـتطيع ملاحظته وتتبعه، بل على العكس، إنها مشتتة إلى حد أنها تعمل وتسري في المجتمع بشـكل خفي وعبر ممارسات جد دقيقة و» لكي نفهم السـلطة في تجلياتها المادية وعملها اليومـي، ينبغـي علينـا البحث عنها في مسـتوى الممارسات الدقيقة وفي مستوى التقنيات السياسية التي تتشكل انطلاقا منها ممارساتنا»[3] ولهذا السبب سعى فوكو للقيام بدراسة « ميكروفيزيائية السلطة «microphysique du pouvoir للسـلطة وهـي تسري في المجتمع.

لا يعالج فوكو السـلطة كوحدة متماسـكة وموحدة وثابتـة، وإنمـا كعلاقات تفترض شـروطا تاريخية حيث تبـرز بشـكل مركب، كمـا تسـتلزم مفعولات متعددة، بما في ذلك وضعها خارج التحليل الفلسفي الذي يعرف عادة كمجال للسـلطة. إذا كان صحيحا أنه لا سـلطة إلا بوصفها ممارسة لبعض على آخر، فـإن جينيالوجيا السـلطة غير منفصلـة بتاتا عن تاريـخ الذاتيـة **histoire de la subjectivité**. وإذا كانت السـلطة لا توجد إلا في الفعل **Acte**، فإن السـؤال»كيف»**comment** هو الذي ينبغي تحليل نمـاذج عمله، أي تحليـل البـروز التاريخي أحيانا لهـذه النماذج التطبيقيـة والأدوات التي يعمل بها، والمجـالات التي يعمـل فيها (مجـالات المجتمع) والشـبكة التي يرسمها والمفعولات التي يستلزمها في مرحلة معينة. في كل الأحوال، فإن الأمر لا يتعلق بوصف مبدأ أولي لسـلطة أساسـية، بـل بربط ما يتلاقـى من الممارسـات والمعارف والمؤسسـات، حيـث نموذج الهدف المتابع، غير قابل للاختزال في الهيمنة، بل إنه ليس في ملك أحد وهو يتغير نفسـه في تاريخ المجتمعات.

3- Ibid. 266.

وانطلاقا من هذا التحليل، استطاع فوكو أن يعطينا فهمـا جديدا للسـلطة، مخالفا لما كان سـائدا؛ ففي دراسـته للآثـار المحسوسـة للمعاييـر الجديـدة للسـلطة، يخالف المسار الكلاسـيكي الذي يتحدث عنها بشـكل سلبي وينظر إليها من زاوية المصلحة والموقع داخل البناء الاجتماعي.

لم يعد السـؤال حول السـلطة يسـتند على نماذج قانونية أو على نماذج مؤسساتية، ثم إن رفض فوكو لهذه التحاليل، ورفضه التعامل مع مفهوم السـلطة كشـيء قابل لحصره في بنية أو مؤسسة، هو الذي جعله يقول: « بدون شـك يجـب أن نكون ذوي نزعة اسمية **nominaliste**: ليسـت السلطة مؤسسة ولا بنية، ولا قوة معينة يتميز بها البعض عن الآخرين: إنها الاسم الذي نمنحه لوضع استراتيجي معقد في مجتمع معين»[4].

يتبيـن إذن بأن السـلطة هي عبارة عـن « وضعية اسـتراتيجية معقـدة « تتخـذ كعلاقـات متعـددة ومتنوعـة وغير ثابتـة داخل مجتمـع معين. يقول فوكـو: « إن النمـوذج الـذي ينبغي أن نشـير إليه ونسـتند عليه، ليس هو نموذج اللغة واللسـانيات أو العلامـات، وإنما هو نموذج الحـرب والمعركة، أو نموذج التكتيـك والإسـتراتيجية. إن التاريخية التي تحركنا وتحسم أمورنا في نهاية المطاف، هي تاريخية حربية ونزاعية، وليسـت لغوية لسـانية5، إنها تخص علاقات السـلطة لا علاقـات المعنى»6، وهـو هنا يتوجـه تحديدا لهابرمـاس الذي أمضى حياتـه يؤسـس لنظرية في أخـلاق النقاش، تخفي وراءها نفس النظرة الكلاسيكية للسلطة.

وضح فوكو أن السـلطة تنبث في كل خلايا الشبكة الاجتماعية، وتأتي من كل جهة، وتتواجد في مجالات قد لا نعتقد أنها ذات صلة بها، فالسلطة هي « علاقات القوة المتعددة التي تكون محايثة للمجال الذي تعمل فيه تلك القوى»[7]، إنها العلاقات المتبادلة بين القوى

4- Foucault M. : « La volonté de savoir » Gallimard, France, 1976, pp 121-128.

5 - العبارة هنا موجهة ضد هابرماس الذي اختزل العلاقات الاجتماعية في اللغة والحجاج وأخلاق المناقشة.

6- **Ibid**.

7- Ibid.

في جميع المستويات: الاقتصاد والسياسة والمعرفة والإيديولوجيا والجنس والعلاقات الخاصة... إنها في استمرار دائم بدون انقطاع، وهي حاضرة في كل مكان: « إلا أن حضورها واستمرارها لا يعني أنها تتمتع بقوة جبارة تمكنها من إخضاع كل شيء، ولكن لأنها تتولد في كل لحظة وعند كل نقطة، أو بالأحرى في علاقة نقطة بأخرى، وإذا كانت السلطة حالة في كل مكان، فليس لأنها تشمل كل شيء، وإنما لأنها تأتي من كل صوب»[8].

إنها تمتد في مختلف فعاليات الأجهزة الاجتماعية، فالشبكة الاجتماعية بهذا المعنى هي علاقات قوة متبادلة تتوازن في صيغ مؤقتة إجرائية، وما توازن المجتمع إلا نتيجة لعلاقات القوى rapports de forces المباشرة منها وغير المباشرة، وتكتسي هذه العلاقات، طابع عدم التوازن وعدم التكافؤ والتوتر والتنوع وعدم الاستقرار، بحيث يضم بعضها بعضا أو العكس. إن السلطة ممارسة، وبهذه الممارسة تتحدد تقنياتها، فممارسة السلطة هي في كل لحظة، فريدة في إواليتها وفي أهدافها وفي نتائجها، وتعزى هذه النتائج إلى عمليات وتقنيات واستعدادات وتكتيكات.

السلطة هي حصيلة مجمل الإجراءات الإستراتيجية، ويتم استثمارها عبر هذه الإجراءات وعبر الأفراد، إذ تعتمد عليهم وتستثمر طاقاتهم، فعلاقات السلطة تجد مرتكزها في الأجساد وتؤثر عليها تأثيرا مباشرا، فتستعملها وتقومها وتطبعها وتجعلها تعمل أو تتوقف عن العمل، توفر لها ظروفا معينة وتجبرها على ممارسات وطقوس معينة، وتطلب منها أفعالا وإشارات؛ فلا تكون قوة الجسد مفيدة، إلا إذا كان الجسد في الوقت ذاته، جسدا منتجا وخاضعا، ولا أهمية للفرد إلا باعتباره مقويا للسلطة؛ وحياته أو موته أو سعادته أو شقاؤه، كل هذه الأشياء، ليس لها من معنى إلا في حالة كونها ممارسات ذات فعالية سياسية. ويصبح واجب الفرد أحيانا في نظر السلطة، هو أن يحيا ويعمل وينتج وفق نماذج معينة، وفي أحيان أخرى يكون عليه أن يموت حتى تزداد السلطة قوة، كما في حالة جنود الحرب مثلا.

تتلخص الإشكالية، حسب فوكو، في ظهور الإنسان والمجتمعات المعاصرة كموضوع لاهتمامات السياسة والعلوم وإدخال هذه الظاهرة ضمن الحياة الاجتماعية. وبعد أن كان سائدا بأن السلطة والدولة تسعيان لتحقيق سعادة الأفراد وحمايتهم بواسطة ضمان حقوقهم ومصالحهم العليا، أصبح العكس هو الصحيح، إن الأفراد والجماعات يراقبون لكونهم مرتبطون بمصلحة الدولة، فحاجات الفرد والجماعة، وسعادتهم لم تعد تعتبر هي الحدود النهائية للدولة ومؤسساتها، بل أصبحت هذه الحاجات، تستثمر باعتبارها وسائل لتقوية قدرة الدولة.

ومن خلال ارتباط الأفراد بمصلحة الدولة في تنظيمهم وحاجاتهم وتحركاتهم، وعبر هذا الارتباط، تتضح العلاقة الموجودة بين التصور الإداري لمصلحة الفرد وبين نمو السلطة، فالإدارة تكون تصورها حول مصلحة الفرد وتدخلات الدولة على شكل مشاكل بيولوجية كالتناسل والمرض والعمل والمعاناة.

تمارس السلطة عبر لعبة من العلاقات المتحركة، إنها « الكيفية التي تعمل بها التقنيات السياسية عبر الجسم الاجتماعي»9، وكون علاقات السلطة داخل وضعية إستراتيجية معينة هي علاقات قوة، بالإضافة إلى أن الأفراد مرتبطون بمصالح الدولة، فإن هذه الأخيرة تسعى دوما إلى معرفة خاصة بالدول الأخرى. ذلك لأن هدف هذه العقلانية السياسية هو قوة الدولة، وقوة الدولة لا يمكن إلا أن تقاس بمنطق القوة. وبما أن كل الدول تلعب نفس اللعبة السياسية، فإن مقارنة الدول فيما بينها تصبح عنصرا أساسيا في هذه العملية.

لم تعد مصلحة الفرد وبقاءه تعتبر هدفا أخلاقيا وإنسانيا، وإنما أصبحت في خدمة هدف القوة. وهذا ما يجعل السلطة تلعب مباشرة دور المنتج، ويقصد فوكو بإنتاجية السلطة أنها ليست خارج أنواع أخرى من العلاقات: المعرفية والجنسية والاقتصادية، وإنما هي نفسها التي تنتج، فهي ليست مجرد ضامن لإعادة الإنتاج، وعلى الرغم من

8- Ibid.

9- Dreyfus et : « Michel Foucault : parcours… » p 265.

كون علاقاتها محايثة للمؤسسات فإنها لا تتطابق معها.

تكمن السلطة كاصطفاف عام لعلاقات القوة، في الكيفية التي تحدد بها الواقع في نفس الوقت الذي تنتجه فيها، فبما أنها مجموعة علاقات متناقضة ومتصارعة، ومستمرة ومتكررة، فإنها بالضرورة تنتج حسب أهدافها وتتحرك حسب قوتها وحدتها. وهذا ما قصده فوكو حين قال إن السلطة هي: « الحركة التي تحول تلك القوى، وتزيد من حدتها، وتقلب موازينها بفعل الصراعات والمواجهات التي لا تنقطع، وهي السند الذي تجده تلك القوى عند بعضها البعض، بحيث تشكل تسلسلا ومنظومة، أو على العكس من ذلك، تفاوتا وتناقضا يعزل بعضها عن بعض، وهي أخيرا الاستراتيجيات التي تفعل فيها تلك القوى فعلها »[10].

السلطة إذن استراتيجية، ولا يمكن تصور مجتمع بدون هذه الاستراتيجية، ف « مجتمع بدون علاقات سلطة لا يمكن إلا أن يكون تجريدا »[11]، وبما أن الأمر كذلك، فلا يمكن إلا أن تأخذ المقاومات مكانا متميزا داخل هذا التصور، على العكس من التصور الكلاسيكي الذي يعطي الامتياز للثورة. ذلك أن « علاقات القوى المتعددة » في عملها سواء في المؤسسات أو أجهزة الإنتاج أو المدرسة، تكون دائما حاملة على الانقسامات داخل المجتمع، إذ أن هذه الانقسامات تؤدي دوما إلى نزاعات ومواجهات تقوم السلطة بإعادة توزيعها وتنظيمها وتوحيدها. يقول فوكو: « إنه حيثما كانت السلطة، تكون هناك مقاومة، ومع ذلك، أو بالأحرى من هنا بالضبط، فإن هذه الأخيرة ليست على الإطلاق في موقع الخارج بالنسبة للسلطة «[12]. إن العلاقة بين السلطة والمقاومة هي علاقة تلازم، إذ لا وجود للواحدة منهما إلا بوجود الأخرى، فالمقاومة هي الطرف الآخر من علاقات السلطة، وهذه الأخيرة لا وجود لها إلا « انطلاقا من تعددية نقط المقاومة، أي أن هذه الأخيرة تلعب في علاقات السلطة دور الخصم والمرمى والسند والمتكأ لسيطرة ما، ونقط المقاومة هذه حاضرة في كل مكان من شبكة السلطة »[13].

بحكم هذه العلاقة التي تجمع بين السلطة والمقاومة، وبما أن السلطة منتشرة في كل مكان من المجتمع، فكذلك الحال بالنسبة للمقاومة؛ إنها منتشرة عبر كل الجسم الاجتماعي. إلا أن « هذه المقاومة... ليست جوهرا، وهي ليست سابقة على السلطة التي تواجهها. إنها مساوية لها في الامتداد ومعاصرة لها قطعا»[14] ولها ما للسلطة: فهي تتحرك وتنتج وتنتظم وتتوزع على نحو استراتيجي؛ وبهذا تتيح لنا المقاومة إمكانية تعديل إجراءات السلطة وسيطرتها حسب شروط محددة وفي وضعية إستراتيجية معينة.

حيثما توجد علاقات السلطة، توجد إمكانية مقاومة لأشكال هذه العلاقات، وهكذا أصبح نموذج الحرب والإستراتيجية المصاغ على شكل موازين القوى عند ميشيل فوكو، هو النموذج الأكثر ملائمة لتحليل علاقات السلطة. بهذا المعنى، فإن السلطة لا تكون مطلقة، وكذلك الحال بالنسبة للمقاومة، إذ كل واحدة منهما تجعل الأخرى نسبية بحكم هذا التواجد المشترك الواحدة أمام وفي مقابل الأخرى.

إن مصطلح المقاومة عند فوكو مسبوق بعدد آخر من المفاهيم التي تعبر عن شكل من الخارجية بالنسبة لنظام المعرفة / سلطة، مثل حالة التمرد transgression الذي استقاه من باتايBataille ، والخارج Dehors الذي استقاه من بلانشو Blanchot . يتعلق الأمر في الحالتين، بوصف الطريقة التي بها يوصف فرد ما عموما من خلال طريقة كتابية ناجحة، بشكل إرادي أو جزافي في التحكم بعدة التعريف والتصنيف والتطبيع للخطاب(مجال الأدب). في حدود ما لم تكن هناك معرفة ممكنة حول موضوعات غير ممكنة، كهذه الحالات ésotérique، بتفعيل عدد من طرق لسانية تمثل في مرحلة أولى بالنسبة لفوكو استحالة الموضعة المعيارية. تناسب كثرة الأدب كمجال مفضل، ومفهوم التمرد

10- Foucault M. : « La volonté de savoir » Gallimard, pp 121-128.

11- Foucault M. : " Deux essais…" p 316.

12- Foucault M. : « La volonté de savoir ». Gallimard, pp 121-128.

13- Ibid.

14- Ibid.

في نفس الوقت، الحاجة إلى وضع المسألة بطريقة عامة (أي كما بالنسبة للممارسات اللاخطابية) وليس فقط على مستوى الفعل الفردي بل الجماعي.
يظهر مصطلح المقاومة إذن، كمعنى مختلف شيئا ما عن ذلك الذي كان التمرد يعنيه**transgression** : توجد المقاومة بالضرورة هنا حيث السلطة، لأنها غير معزولة عن علاقاتها، وقد يحدث أن تؤسس علاقات للسلطة، مثلما قد تكون نتيجة لها.
يحدد فوكو بعض هذه المقاومات التي تظهر على شكل تعارضات: سلطة الرجال على النساء، والآباء على الأبناء، والطب النفسي على المرضى عقليا، والصحة على السكان، والإدارة على الكيفية التي يعيش بها الناس، فهذه المقاومات أو التعارضات لا يمكن اعتبارها تقاوم من أجل القضاء على السلطة.
وعلى الرغم من اختلافها وتنوعها فإن لها عدة نقط مشتركة :
إنها توجد في كل المجتمعات، ولا تنحصر في مجتمع بعينه أو نظام سياسي أو اقتصادي.
إن لها هدف واحد هو مقاومة تأثيرات السلطة المباشرة.
تعتبر هذه المقاومة مباشرة **immédiate**، وذلك لسببين: -1 لأن الناس ينتقدون لحظات السلطة القريبة منهم والتي تمارس عليهم فعلها. -2 لأن الناس يبحثون عن عدوهم المباشر، ولا يتصورون حلا لمشاكلهم في وعد للتحرر أو في ثورة أو في نهاية الصراع الطبقي[15].
إنها مقاومات تضع قانون الأشخاص والمجتمع موضع تساؤل، بحيث تقرر حق الاختلاف وتركز على كل ما من شأنه أن يجعل الفرد يعيش فرديته، ومن ناحية أخرى، تهاجم كل ما يمكن أن يجعل الفرد منعزلا عن الآخرين وعن الحياة الاجتماعية التي تبرر داخلها فردية **individualité** الشخص.
كل هذه المقاومات تقاوم تأثيرات السلطة المرتبطة بالمعرفة.
كل المقاومات الحالية تدور حول نفس السؤال: من نحن ؟ وتشكل رفضا للعنف الممارس من طرف الوضعية الاقتصادية والإيديولوجية التي تجهل من نحن كأفراد، كما ترفض أيضا المعطيات العلمية والإدارية التي تحدد هويتنا.
لا تواجه هذه المقاومات مؤسسة سلطوية أو جماعية أو طبقية، ولكن تواجه تقنية خاصة وشكلا معينا من أشكال السلطة التي تمارس على الحياة اليومية المباشرة، وترتب الأفراد وتحدد لهم فرديتهم وهويتهم وتفرض عليهم حقائق معينة، أي تلك الحقائق التي يجب عليهم معرفتها وينبغي على الآخرين أن يتعرفوا عليها فيهم.
هناك إذن ثلاثة أنواع من المقاومات :
المقاومات العرقية والدينية التي تعارض كل أشكال الهيمنة.
المقاومات التي تواجه الاستغلال والاستلاب.
المقاومات التي تحارب كل ما يعزل الفرد ويجعله منغلقا على نفسه، إنها مقاومات ضد الخضوع.
نأخذ بعض الأمثلة التاريخية التي أعطاها فوكو، فمثلا في النظام الفيودالي نجد أن المقاومات ضد الهيمنة هي التي كانت سائدة، وفي القرن التاسع عشر، فإن المقاومات التي طغت عليه كانت ضد الاستغلال والاستلاب، أما في العصر الحاضر، فإن المقاومة ضد الخضوع هي التي تأتي في المقام الأول.
إلا أن تميز كل فترة بنوع من المقاومات، لا يعني اختفاء باقي المقاومات الأخرى، فإلى جانب المقاومات الدينية العرقية في القرون الوسطى، كانت هناك مقاومات أخرى. وفي العصر الحاضر، وإلى جانب المقاومات ضد الخضوع التي تحتل المرتبة الأولى، نجد المقاومات ضد الاستغلال والهيمنة مستمرة. يقول فوكو: «لا يمكن لهذه المقاومات أن توجد تحديدا إلا في الحقل الاستراتيجي لعلاقات القوة، ولكن هذا لا يعني أنها ليست إلا رد فعل وصدى، إنها تشكل بالنسبة للسيطرة الأساس، وجهها الآخر المنفعل على الدوام والمعرض للهزيمة اللامتناهية »[16]. تنتعش الواحدة منهما من الأخرى وبها، وذلك ما يجعل السلطة تشكل نسيجا سميكا مخترقا لكل المؤسسات ومتوغلا إلى أقصى جزء من الجسد الاجتماعي، ومع كونها كذلك، فممارستها

15 - النقد هنا موجه للنظرية الماركسية في السلطة.

16 - Ibid.

لا تعني مجرد علاقة بين نظيرين: أفراد أو جماعات، ولكنها الفعل الممارس من طرف البعض على أفعال البعض الآخر.

ليست ممارسة السلطة من هذا المنطلق، ذات طابع عنف لزوما، وإنما هي ممارسة قابلة للتوجيه، فهي مجموعة أفعال ممارسة في مقابل أفعال أخرى واقعة أو ممكنة الوقوع، وبالتالي فالسلطة لا توجد إلا كفعل ممارس في حقل مليء بالإمكانات والاحتمالات. تشجع هذه الممارسة فعلا ما أو تدمجه وتقبله وتسهله، أو تضع أمامه حواجز وتوسعه أو تحدده وتجعله ممكنا أو العكس، فعلاقات السلطة كأفعال، لا تعمل ولا تؤثر مباشرة على الآخرين، وإنما على أفعالهم. إنها فعل في مقابل فعل، أو أفعال أخرى حاضرة أو مستقبلية.

تتمحور علاقات السلطة هذه حول عنصرين ضروريين لها هما:

**-1** معرفة الآخر الذي تمارس عليه السلطة.

**-2** وجود لمجال مفتوح من الأفعال والتأثيرات أمام علاقات السلطة، وهذا على عكس علاقات العنف التي تجبر وتدمر ولا تقبل إلا ما هو ساكن وخاضع.

حسب فوكو، إذا أردنا تحليل ملموس لعلاقات السلطة، فإنه ينبغي الاستغناء تماما عن النموذج القانوني للسيادة الذي تحدثنا عنه بشيء من التحليل، فهذا النموذج يفترض في الفرد أنه موضوع للحقوق الطبيعية والسلطات البدائية، والهدف هنا هو التصور المثالي لشكل الدولة (مونتيسكيو Montesquieu، فيبر Weber، ماركس Marx...) فيجعل من القانون المظهر الأساس للسلطة.

لكن ينبغي التخلي عن هذا، فتحليل السلطة يجب أن يكون، ليس انطلاقا من هذا، بل انطلاقا من العلاقة نفسها بوصفها هي التي تحدد العناصر التي تعمل عليها وبها، ينبغي البحث كيف أن علاقة الاستعباد تستطيع صنع الذوات، وينبغي ترك أشكال هذه العلاقات تعطي نفسها في تعدديتها واختلافاتها وخصوصياتها، أي دراستها كعلاقات القوة التي تتقاطع، وبدل إعطاء الأولوية للقانون كتظاهرة للقوة، ينبغي البحث عن مختلف تقنيات الإكراه.

هل يتعين علينا فهمها كشكل عام للحرب ؟ وهل الحرب يمكن أن تكون عاملا محللا لعلاقات السلطة ؟ هذا السؤال يستدرج أسئلة أخرى: هل الحرب حالة تشتق منها كل ظواهر السيطرة والتمييز والتراتب ؟ هل تعود صيرورات المواجهات بين الأفراد والمجموعات والطبقات إلى الصيرورات العامة للحرب ؟ هل تستطيع مفاهيم الاستراتيجية والتكتيك أن تكون أداة صالحة لتحليل علاقات السلطة ؟ وهل المؤسسات العسكرية والحربية هي نواة المؤسسات السياسية ؟ متى وكيف بدأ التفكير في أن الحرب هي التي تشتغل في علاقات القوة، وأن المعركة المستمرة تستجلب السلم وأن النظام المدني هو أساس نظام المعركة ؟ من الذي أدرك أن في مآسي الحرب وصراخها وضجيجها، يوجد مبدأ المعقولية للنظام ؟ من فكر أن السياسة هي الحرب بوسائل أخرى؟[17].

في الواقع، لقد حصل تطور وتحول كبير، حيث بدأ يظهر نوع من الخطاب حول العلاقة بين المجتمع والحرب؛ خطاب تاريخي سياسي مختلف عن الخطاب الفلسفي القانوني، جعل من الحرب الأساس الدائم لكل مؤسسات السلطة. إن الحرب هي التي أعطت ميلاد الدول، لكن الحديث هنا هو عن الحروب الواقعية والمعارك الفعلية، وليس عن الحروب النموذجية المثالية والمتخيلة. لقد نشأت القوانين خلال هذه الحروب والمعارك والغزوات، فالحرب هي ثمن السلم، إنها تقسم الجسد الاجتماعي برمته وباستمرار وتضع كل واحد منا في جانب آخر متباين.

إن الذات التي تتحدث في هذا الخطاب، لا يمكنها أن تحتل وضع رجل القانون والفيلسوف، أي وضع الذات الشاملة، ذلك أنه في هذه المعركة العامة هو في الجانب المضاد، إنه في عنصر هذه المعركة وله أعداء، وهو يحارب كي ينتصر، هو يعمل بدون شك لإثبات حقه، لكن الأمر يتعلق بحقه هو كفرد مطبوع بعلاقة الغزو والهيمنة: حق العرق والسلالة، وحق الانتصارات المبجلة أو الاحتلالات الطويلة، وإذا كان يتحدث كذلك عن حقيقة، فإنه يتحدث عن

17- Foucault M. : « Résumé des cours 1970- 1982 » Conférences, essais et leçons du collège de France. Julliard. Année 1989, pp 85-94. (détaillé au « Dits et Ecrits )

هـذه الحقيقة الآتية والإسـتراتيجية التي تسـمح لـه بالانتصار. نحـن هنا إذن أمام خطاب سياسـي وتاريخي يدعي الحقيقة والحقوق، ولكنه بذلك يخرج نفسه من الشمولية القانونية والفلسفية، فدوره هو إثبات الحقيقة التي تشـتغل كسلاح. بالنسبة للذات التي تطرح خطاب كهذا، فإن الحقيقة الشاملة والحق العام هي أوهام ومكائد.

هنـاك خطاب آخر غيـر معني بهـذه الحقيقة وهذه الانتصـارات، ومـا يهمـه هـو اختـلاط وتضارب العنف والأشـواق والأحقاد والانتقـام. في النهاية، فإنـه بتعارض هذا الخطـاب التاريخي مع الخطاب الفلسـفي القانوني، يصبح الخطاب الذي تشـتغل فيـه الحقيقـة كآلة حـرب من أجل انتصـار خاص، خطابـا نقديا ولكنه غامـض إلى حد بعيد. ما يهمنا هنـا هو أن مبدأ التحليـل التاريخي، يبحث عنه في ثنائية الحرب والسـلالة، وانطلاقا من هذا سيتطور نموذجـان للبحـث التاريخي: يظهـره الواحد على أساس صراع الطبقات(ماركس)، ويظهره الآخر على أساس المواجهة البيولوجية(بتر سلوتيردايك).

يبدو لنا أن فوكو يجيب هنا بالأساس، على النظرية الماركسية في السلطة، ويجيب تحديدا على ألتوسير الذي يصر على أن هناك مسـتويين للدولة: مستوى الدولة بوصفها آلة قمـع، مدعمة بالحكومة والإدارة والشـرطة والجيش والمحاكم والسجون، وأساسها العنـف المادي. ومسـتوى الدولـة بوصفها أجهزة إيديولوجية، كل المؤسسـات فيهـا، حتى الخاصة تعمل تحت سـيطرة الدولة ومراقبتها لخدمة العنف وقوة الدولة وسـيادتها. ولما أن أساس الدولة عنده هو القمـع، فإن الأجهـزة الإيديولوجيـة هي أيضا تكملة لدور القمع.

على هذه النظرية يجيـب فوكو، وهي بالضبط التي يرفض، لماذا ؟ لأنها تغفل أولا العالم الميكروفيزيائي للمجتمع الذي تسـري فيه السـلطة، والتي تتحرك فيه الأجزاء الصغـرى وتصارع وتقاوم ضد كل هذه الاستراتيجيات. ثم لأنها تخفي المشروع الآخر الذي هو دولة البروليتاريا التي ينبغي أن تقوم كما تقول الماركسـية علـى ديكتاتورية البروليتاريـا، أي أن الماركسـية كانت ملزمة بأن تحافظ على مبدأ العنف والقمع والقوة، وإلا انهارت نظريتها بالكامل.

بيد أن الماركسـية، تحاول أن تصوغ مخرجا لذلك، بأن تتحدث عن هذه الدولة كمرحلة مؤقتة لحين إلغاء الدولة نفسـها، أي إلغاء القمع والعنف. من هنا نرى قصور الماركسية، ليس فقط في ما يخص فشلها في فهم السـلطة، بل أيضا في إعطائهـا لنموذج محدد لتحرير الإنسـان. مـن جهة أخرى، هـل يمكن إلغاء الدولة والسـلطة ؟ أي هل يمكن إلغاء العنف والقمع والصراع من حياة البشر والمجتمعات ؟

يذهب فوكو في دراسته للبعد الجينيالوجي للإنسان المعاصـر، إلى أبعد من ذلـك ليقحم الحرية كعنصر آخر مـن بين العناصـر المقومة للسـلطة، فحينما يحدد السـلطة باعتبارها فعلا ممارسـا على أفعال الآخرين، فإنها لا تكون كذلك إلا كممارسة على ذوات حرة، سـواء كانـت فردية أو جماعية. ليسـت هناك إذن مواجهـة بين الحرية والسـلطة كما يعتقد؛ كما أن العلاقة بينهما ليسـت علاقة نبذ أو إبعاد، بحيث كلمـا وجدت السـلطة تندثر الحرية بشـكل آلي، أو العكس، ولكنهما مترابطان، فالعبودية مثلا لا وجود فيها لعلاقات سـلطة مادام الفعل الحر منعدم فيها، إنها علاقات سلبية وساكنة.

هكذا تشـكل علاقـات السـلطة والحريـة لعبة جد معقدة، بحيث تظهر الحرية داخل هذه اللعبة كعامل من عوامل وجود السـلطة، فلابـد من وجود الحرية لكي تمارس السـلطة، فعلاقات السـلطة والحرية لا يمكـن أن تفترقا. ولعل هذا ما قصده فوكو بقوله: « أن نعيش داخل مجتمع يعني في جميع الحالات، أن نعيـش بكيفية يمكن معهـا أن نؤثر على الفعل فيما بيننـا «[18]، لأن القيام بفعل، هو دليـل على الحرية، والحرية تستلزم علاقات السلطة.

كانـت السـلطة فيما قبل تعـزى إلـى ذوات فاعلة، سـواء كانت طبقة معينـة أو جماعة أو نخبة، وهذا التصـور كما يلاحظ، يحيل مباشـرة على فلسـفات الذات(ديـكارت، كانـط، هيجل ..) وعلـى النظريات الكلاسـيكية في السلطة(مونتيسكيو، فيبر، ماركس ...). غيـر أن فوكـو الذي غادرها نهائيـا، قد خالف الأمر بشـكل جذري، ففي تحليلاتـه يوضح كيف أن هذه العلاقات هي علاقات معقولة **intelligible** ولا

18- Foucault M. : « Deux essais… » p 316.

يمكن ردها إلى فاعل بعينه، أو البحث عن مصدر هذه المعقوليـة في ذوات تكون هي علتها. ومما لا شـك فيـه، أن أهم فكرة بلورها فوكو في تناوله للسـلطة هو قوله إن علاقات السـلطة، هي في الوقت نفسـه قصديـة **intentionnelle** وغيـر صـادرة عن ذات فرديـة وقرارها، إذ لا يمكن معهـا الحديث عن نوايا خفية من ورائها يجب الكشف عنها.

لا يمكن اعتبار أصحاب القرارات مجرد أطر وأدوات فـي يد السـلطة تجعلهم يعملون كما يشـاءون؛ لأن المسـؤولين عـن هذه القـرارات يعلمـون جيدا ما يقومون به. إلا أن اتخاذ قرارات تجاه مسائل سياسية معينة، لا يعفي في جميع الأحوال، أن توجيه علاقات السلطة تكمن من ورائها ذات موجهة؛ فحينما نكون بصـدد تحليل وضعية سياسـية معينـة ومحددة: « يكـون منطـق العمل هنا، واضحـا وصريحا، كما تكون المقاصد بينة ظاهرة. وعلى الرغم من ذلك، فقد يحدث ألا يظل هناك من يكون قد تصورها لصياغتها، باستثناء القلة القليلة»[19].

ما يميز علاقات السلطة، هو أنها ليست ذات طبيعة باطنية بحيث ينبغي البحث لها عن أصل أو مبدأ. إن الممارسـات الموضوعية هي التي تكمن من ورائـها وتدفعهـا وتحركهـا، وتجعلها تعمل حسـب منطق واضـح من التكتيـكات والتقنيات، تسـير بموجبه نحو أهداف معينة، وهذه الممارسـات الموضوعية والتقنيات التي توظفها عبر نقط محلية متعددة، هي التي أعطت بعدا واقعيا لما حاول فوكو تحليله داخل الحقل الاجتماعي في مسـتويات شـتى، فالسلطة لا وجود لها بغير مجموعة من الأهداف والمقاصد. لكن هـذه الأهداف والمقاصد لا تنطوي على نوايا ذاتية، ف» هنـاك منطق للممارسـات، وهنـاك تحرك تجاه هـدف اسـتراتيجي، لكن لا أحد يعتبـر هو المحرك الأساس »[20].

إن للهدف الاسـتراتيجي ظهور تاريخي، وهو يتخذ أشـكالا خاصة، بحيث يتصادم مع حواجز وظروف ومقاومـات عينيـة ليفـرض الإرادة والتخطيـط والحساب. إن ما يفرض وضعية استراتيجية معينة، هـو كونها تخضـع لتنظيم دقيـق وتخطيط محكم، وبدون تخطيط تفقد كل أرضية، وهذا التخطيط ينبني على معرفة مجموع الإجراءات المتخذة والوسـائل المسـتعملة في حقل العمل. إنها عقلانية موظفة من أجل بلوغ هدف محـدد، وتعتمد هذه العقلانية على مسـائل موضوعيـة وواقعية واضحـة، فالتخطيط هو ما يعطي لعلاقات السـلطة معقوليتها ويجعلها تعمل وفق الحسـابات التي تتحكـم في وضعية ما منتشرة داخلها، إن « معقولية السلطة هي معقولية **Intelligibilité** التخطيطـات، التي غالبا ما تكون صريحة في المسـتوى المحدود الذي تتم فيه، وهذه التخطيطات تترابط فيما بينها وتتناشـد وتنتشر، واجـدة دعامتها وشـروط وجودها خارجـا عنها، فترسم في النهاية تشكيلات جماعية »[21].

تعمل السلطة على المستوى المحلي بنفس المنطق، وذلـك لتفرض مجموعة قـرارات واعية واحتياطات وتنبـؤات تسـاير أهدافهـا المقصـودة، ويتم ذلك بتنسيق دقيق مع حيوية السياسة، وتمكنها قصديتها تلك من اسـتثمار تحركاتها وأعمالها على المستوى المحلـي دون البحث عن تعليـلات خفية وراء أفعال المقررين. إذ ليس لنا أن نبحث عن مصدر أولي لهذه الممارسـات، مادام منطق التخطيطات الموضوعي يخترقهـا، ومادامت هذه الممارسـات، لا هي مجرد خداع ولا هي مجرد نفاق.

يقول فوكو: « لا يجب أن نبحث عن هذا الشـرط في الوجـود الأول لنقطة مركزيـة أو في المقر الوحيد للسـيادة، حيـث تشـع أشـكال متفرعـة ومنحدرة للسـلطة... ولا في الهيأة العليا التـي تكون مصدر معقوليتهـا، فلا الفئة الحاكمـة ولا الجماعات التي تسـهر على سـير أجهزة الدولة، ولا تلك التي تتخذ أكثر القـرارات الاقتصادية أهمية، هي التي تسـهر على تنظيم شـبكة السـلطة التي تعمـل في مجتمع معين »[22].

إن المعقولية والقصدية هما خاصيتان من خصائص علاقات السـلطة، هذه العلاقات التي سـبق أن قلنا إنهـا لا توجد إلا بوجود عناصر ملازمة لها كالحرية

19- Foucault M. : « La volonté de savoir ». Gallimard, pp 121-128.

20- Dreyfus et : « Michel Foucault » p 269.

21- Foucault M. : « La volonté de savoir » Gallimard, pp 121-128.

22- Ibid.

والمقاومة والاختلاف. وهذه العناصر ليست خارج علاقات السلطة أو الطرف النقيض المجابه لها، بل إنها مترابطة ومتعاضدة. إلا أن هذه الشبكة من العلاقات، إن كانت تتسم بالمعقولية، بحكم الحسابات التي تسري فيها، فليس معنى ذلك أن كل العواقب والنتائج العريضة المترتبة عنها تكون منسقة. ولكن قد تكون غير محتملة وتحدث خللا وتصدعا لتقوم علاقات السلطة من جديد بترتيب هذه النتائج وتنظيمها وتحديدها.

يسعى فوكو في تحليله لمفهوم السلطة إلى إقامة فهم آخر لا ينبني على الدولة والقانون والسياسة فحسب، بل يرتكز أساسا على أربعة أشياء: البحث عما يمكن أن يكون أكثر دقة ضمن علاقات السلطة، ومعاودة الإمساك بهذه العلاقات إلى حدود البنيات التحتية الاقتصادية، ثم تتبعها لا في أشكالها المتعلقة بجهاز الدولة فحسب، بل وفي أشكالها المتعلقة بما تحت جهاز الدولة أو الموازية له، والتعرف عليها في واقعها المادي.

مما لاشك فيه، فإن تناول فوكو لهذا المفهوم، تميز على الخصوص بالكشف عن الروابط المتينة التي تربطه بالمعرفة، مع تحليل العلاقات بينهما تحليلا يوضح من خلاله مدى تورط المعرفة مع السلطة، واعتبار أنهما ليستا في تعارض، ولكن في تعاضد وتكامل.

يطرح فوكو في مستوى آخر، العلاقة بين السلطة والمعرفة، وهو أمر لم يسبق لأحد أن طرحه، والواقع أن هذا المستوى مرتبط ارتباطا دقيقا بكل مشروعه الفكري العام، بحيث إنه يشكل جزءا أساسيا منه، ذلك أنه بشكل ما، يمكن اعتبار كل أعمال فوكو إنما هي في نهاية المطاف، جينيالوجيا الإنسان المعاصر وقضاياه، أو جينيالوجيا إرادته في القوة وإرادته في المعرفة.

العلاقة بين المعرفة والسلطة هي علاقة قوية، يكاد يصعب تصورها منقسمة أو منعزلة عن بعضها، ذلك أن الروابط التي تربط بينهما هي متينة حيث تتغذى كل منهما من الأخرى وتعتمد عليها. كما أن كل واحدة منهما تكمن في الأخرى، فالسلطة لا يمكن أن تعمل وتتحرك، ولا يمكن أن تؤثر وتمارس فعلها بدون معرفة، إن هذه الأخيرة هي التي تشكل أرضيتها التي تعمل وفقها.

لا تشكل المعرفة أو الخطاب بصفة عامة وحدة مفارقة للسلطة وتعارضها على الدوام، وليس هناك خطاب سلطة من جهة، وخطاب حقيقي معارض لها من جهة أخرى. غير أن السلطة تخترقه في جوانبه، ف» ليس هناك، من جهة خطاب سلطة وفي المقابل خطاب آخر يتعارض معه «[23] بل العكس، فالخطاب يشكل جزءا من السلطة، إنه يحتويها وتحتويه.

إذا ما أخذنا مثلا الخطاب الطبي، تتضح لنا الشبكة السلطوية التي يمارسها على حياتنا، إنه يركز على الحياة والأخطار التي تتعرض لها، ويشرح الأمراض التي تصيب الجسد والكامنة داخله. وبهذا يقدم لنا مجموعة من الأدوات والأدوية والممارسات والنصائح ويشجعنا على التمسك بها، فهذا الخطاب يجعل نفسه رهن إشارتنا وفي خدمة حياتنا ويوجهنا ويرشدنا ويجعلنا نلتجئ إليه في كل لحظة خطر، وكأنه المالك المطلق لكل الحلول في هذا الميدان.

أصبح الطب ضروريا لحياتنا في مظاهرها البيولوجية والنفسية، وأصبح يتدخل حتى في أقصى مظاهر حياتنا الخاصة كالحياة الجنسية مثلا، وقد تم التركيز على الحياة الجنسية من طرف علماء الجنس والأطباء، إلى حد أن خطابهم هذا الموجه بالخصوص للنساء أصبح يختزل حياتهن في جنسهن. إنه الجنس الذي يصنفه الأطباء عادة بأنه جنس هش ومريض دائما، وقد استطاع هذا الخطاب منذ القرن الثامن عشر، أن يجعل المرأة شيئا يخص الطب بامتياز. أصبحت حياتنا مشروطة بهذا الخطاب الذي يجب تتبعه والركون لنصائحه، وهكذا يمكن القول إن خطابا من هذا النوع هو في الواقع أداة فعالة للمراقبة والسلطة. بهذا المعنى، أصبح الخطاب يتمتع بسلط مختلفة تتم ممارستها عبر حقائق علمية واضحة، إلا أن هذا الخطاب يتعرض بدوره لأفعال سلطوية، ففي الحياة الجنسية والحياة السياسية، يصبح فيها الخطاب المكان الأكثر تعرضا لأشكال مختلفة من المنع والمراقبة والحظر، الشيء الذي يبرز لنا العلاقات

23- Foucault M. : « La volonté de savoir ». p 134.

المقيمة بيـن الخطاب من جهة، والسـلطة من جهة أخرى[24].

بـدل أن يكـون الخطاب في هـذه المناطق (الحياة الجنسـية والحيـاة السياسـية) عنصـرا شـفافا ومحايـدا، يتجـرد فيـه الجنـس من كل أسـلحته وتركن فيه السياسـة إلى الهـدوء، يغدو ذلك المكان المسـتقطب لأنماط الحظر، حيث تمارس فيه بعضا من أعتى سـلطاتها. إن الخطاب، وإن كان غير لافت للنظر في الظاهر، فإن ضـروب الحظر التي تضربه تكشـف لنا فـي الحين علاقتـه بالرغبة والسـلطة، ولا غرابـة في ذلك، فالخطاب كمـا يبين لنا التحليل النفسـي، ليس هو ذلك الخطاب الذي يعلن رغبة أو يخفيها، إنه موضـوع الرغبة؛ والخطاب كما يعلمنا التاريخ، ليس هـو الذي يفصح عن معارك أو أنظمة من السـيطرة، بل هو الأداة التي بها ومن أجلها يقع الصراع، إنه السلطة التي نسعى للاستحواذ عليها. من هنا، يصبح الخطـاب باعتباره موضوع الرغبة، مكانا للصراع وللنزاع، لكـن ليس من أجل الخطاب فـي حد ذاتـه، أي كخطاب خـال مـن كل رغبة وكل سـلطة، فما يجعله معرضا لأنماط مختلفة من المنع والحظر، خصوصـا في الحياة الجنسـية والحياة السياسـية هو كونه « موضوع رغبة»، الشيء الذي يجعل الرغبات تتنازع وتتصارع حوله، معتمدة إياه، فبه ومن أجله في الوقت نفسـه يقوم الصراع، وهذا مـا يقصده فوكـو بقوله إن الخطاب هو « السـلطة التي نسـعى للاسـتحواذ عليها « فـلا الرغبة ولا الخطـاب خاليان من السـلطة، والعلاقة بينهما هي علاقة تلازمية.

هكذا إذن، يشكل الخطاب أحد العناصر المهمة التي تعتمدها السـلطة، إذ يمكن أن تجتمع عدة خطابات مختلفة، بـل ومتناقضة أحيانا داخل اسـتراتيجية واحـدة أو العكس، أي أن توجد خطابات متشـابهة إلى حد ما، وداخل استراتيجيات متعارضة، من هنا تكون إذن: « الخطابات هي عناصر تكتيكية في حقل علاقات القوى»[25]

وكما يسـتخدم الخطاب كأحد العناصر السلطوية، فإنه يسـتخدم هو نفسـه تقنيات وكيفيـات تجعله يشـكل إحدى المؤسسـات السـلطوية المهمة. إنه يعتمـد على معرفـة موضوعية وفعالـة ذات نتائج إيجابية في تأثيراتهـا، كالنتائج التي حققها الطب مثلا، أو علوم الحيـاة بصفة عامة. ومن جهة أخرى يسـتعمل طموحات الناس وإحساساتهم ورغباتهم واعتقاداتهم ويسـتغل غرورهم، لكـي يوهمهم بأنه يكفي للمرء أن يتجاوز مرحلـة الخطر، لكي ينمحي كل حاجـز أمامـه وتتعبـد الطريق نحو السـعادة؛ فالخطـاب إذن، يحمـل السـلطة وينتجهـا في ذات الوقت، ويجعلها أحيانا قوية، وقد يلغمها ويعرضها أو يجعلها هشة أحيانا أخرى.

حسـب فوكو: « إن السـلطة والمعرفـة تتمفصلان فـي الخطاب، ولهذا السـبب يجب تصـور الخطاب كمجموعـة أجـزاء منفصلة، والتي تكـون وظيفتها التكتيكيـة غيـر أحادية وغيـر قـارة »[26] وقد كانت الفرضية القمعية « ترى أن الخطاب نوعان : خطاب السـلطة الذي كانت تعتبره مركزيا، بحيث تنتشـر لتشـمل المحيط، وخطاب مضاد للسلطة، وفي هذه الحالة، يشـكل الخطـاب المضاد خطابـا معارضا للسـلطة وحامـلا للحقيقة. حسـب هذا التفسـير، يكون خطاب السـلطة هو الخطـاب المهيمن، إلا أن التحليل الذي يقدمه فوكو يكشـف بسهولة عن خطأ هذا التصور، فبحكم ارتباط المعرفة والسلطة لم يعد هناك مكان للتقسيم الذي وضعته الفرضية القمعية، كمـا لا يكفي النظر إلى الخطاب كعالم من الخطابات الموزعـة بين خطاب مقبول وآخر مقصي، أو خطاب مهيمن وآخر مهيمن عليه.

الخطابـات هـي « عناصر عبارية متعـددة « تعمل وتلعب أدوارا مختلفة داخل استراتيجيات متعددة، وذاك هو ما يقصده فوكو في قوله « ليست الخطابات بالمرة خاضعة للسلطة أو موجهة ضدها، إذ ينبغي افتـراض لعبة متعـددة وغيـر ثابتة، حيـث يكون الخطـاب فـي الوقت نفسـه أداة ونتيجة للسـلطة، ولكـن أيضا حاجـزا وعائقا ونقطـة مقاومة وبداية

24- Foucault M. : « L'ordre du discours « Gallimard, France, 1982 (خصص فوكو هذا الكتاب لدراسة هذه العلاقة: السلطة/ الخطاب)

25- Ibid. p 134.

26- Ibid. p.133.

لاستراتيجية معارضة »[27].
تمارس علينا المعرفة بشكل عام سلطات مختلفة في جميع مستويات ممارساتنا، وبشكل خاص « نظام الفكر « الذي نعيش فيه؛ وقد بلور فوكو هذا المفهوم ليوضح أن كل فترة زمنية معينة، أو كل عصر من العصور، يعيش تحت رحمة نظام فكري (الإبيستيمي)[28] يملي عليه جملة من القوانين والقواعد الفكرية والاستدلالية، بحيث يمارس علينا هذا النظام الفكري سلطة مرجعية، ونصبح مسجونين داخله ومستعبدين من طرفه، ولعله في هذه النقطة تكمن مهمتنا، إذ يجب علينا أن نساهم في تحطيم وخلخلة بديهيات وقوانين هذا النظام، ساعين إلى تغييره وإقامة نظام فكري آخر أكثر ملاءمة لطموحاتنا.
إذا كانت المعرفة تشكل سلطة مؤسساتية وتمارس سلطة معينة بإجبارنا على اعتناق مجموعة حقائق، وذلك عبر نظام من التعليم والتربية والتجربة والمختبرات، فإن السلطة تنتج بدورها معرفة معينة؛ فالمعرفة لها سلطة، كما أن السلطة لها معرفة. تنتج السلطة معارف، وتؤدي إلى تراكم المعلومات والمعرفة، وتستخدم هذا التراكم المعرفي من أجل مزيد من ممارسة السلطة.
بالنسبة لفوكو، فحينما انطلق للبحث عن المطموس في التاريخ وكشف عن الروابط بين السلطة والمعرفة، فقد بين بأنهما تمثلان حقيقتان لا تنفصلان، سواء في المصحة العقلية أو غيره من آليات السجن والإقصاء، وبذلك يكون قد حدد خطوط الفصل الخاصة بالسلطات المختلفة، فقد كان شروع الأطباء النفسيين في تحليل ظاهرة الشذوذ الجنسي، من الناحية الطبية، انطلاقا لسلسلة من التدخلات والمراقبات الجديدة التي لم تكن آليات السلطة تعرفها قبل القرن التاسع عشر.
وفيما يخص الطب العيادي، نجد مؤسستين مختلفتين لممارسة السلطة والمراقبة؛ هناك الحجز الطبي النفسي والإيواء الاستشفائي الطبي، وهاتان المؤسستان ترتبط بهما أشكال مختلفة من المعرفة.

هكذا نجد بنيتين للسلطة تنتجان لنا معرفة علمية خصبة. إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن العلاقة بين هاتين البنيتين من جهة، والمعرفة المترتبة عنهما من جهة أخرى، ليست علاقة سببية، وإنما علاقة تكونان فيها، الطرفان المشروطان فيما بينهما.
وبعد أن كانت الجريمة تعتبر مشكلا قانونيا، أصبحت تكتسي بعدا آخر، هو البعد العلمي؛ إنها أصبحت خاضعة للعلم، وهكذا أصبح المجرم يحال قبل العقاب على الطب وعلم النفس وعلم الإجرام **criminologie** . وهذه الفروع المعرفية تتدخل بدورها من أجل تأديب الفرد وتقويمه وإدماجه في الحياة الاجتماعية. أصبحت هذه العلوم تشكل سلطة تأديبية، إذ أنها أنتجت تكنولوجيات للجسد، حيث يكون هذا الأخير موضوعا للسلطة. ويعتبر الهدف الرئيس لهذه السلطة التأديبية، هو إنتاج أفراد يمكن التعامل معهم كأجساد مطيعة ومنتجة؛ وهذه السلطة التأديبية، تشمل كل من المدرسة والمعمل والثكنة العسكرية والمستشفى والسجن، فالهدف العام لهذه المؤسسات هو مضاعفة طاعة وإنتاجية الأفراد.
من ناحية أخرى، نجد أن السلطة تعتمد على معارف أخرى غير هذه، إنها تتطلب معرفة إدارية، بحيث تجمع الإدارة جملة من المعارف المختلفة، وذلك قصد فهم المجتمع والدولة، وحول السكان والمصادر الحيوية والمشاكل التي ينبغي مواجهتها؛ وتستعمل الإدارة في عملها هذا، مجموعة من المناهج الاختبارية من أجل تحقيق وإنتاج المعرفة التي تحتاج إليها، فلكي تنظم المجتمع تنظيما عقلانيا، ولكي تتقوى الدولة وتتخذ موقعها داخل حقل علاقات القوى، ولكي تنتج كل الضروريات المحلية التي تتطلبها، لا بد لها من معرفة دقيقة بكل الميادين التي ترتبط بها مصلحتها، فالتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والقوانين، التي تنظم بموجبها الحياة الاجتماعية والاعتبارات المناخية والديموغرافيا، كل هذه الفروع المعرفية، تصبح عناصر رئيسية في مركب جديد ومعقد من السلطة والمعرفة.
يكون الجهاز الإداري دائما في حاجة إلى معرفة خاصة، لكي تستطيع السلطة أن تعمل بشكل فعال، وتمكنها هذه المعرفة من ضمان قوتها ومعرفة نقط

27- Ibid. p133.

28- استعمل فوكو هذا المفهوم في كتابه « الكلمات والأشياء ».

ضعفها لمحاولة تجاوزها. وبما أن الدولة تربط كل شيء بمصلحتها، ففي هذه الحالة تصبح حياة الأفراد خاضعة لاختيارات السياسة. ومادام السكان ليسوا سوى ما تشتغل به الدولة من أجل مصلحتها فإنها تدعي حق تدميرهم أو ملائمة حياتهم مع مصالحها، وأحيانا التضحية بهم إذا كان ذلك في صالحها. إن هذه التكنولوجيات السياسية الجديدة المستعملة من طرف السلطة، جاءت متزامنة مع ميلاد العلوم الإنسانية الاختبارية، هذه العلوم التي أصبحت نتائجها تسخر من أجل تقوية السلطة وتسهيل عملها.

على هذا الأساس، يمكننا أن نفهم المعنى الذي أعطاه ميشيل فوكو إلى مفهوم الحقيقة، فهذه الأخيرة كانت تتصور على أنها مطلقة وبالتالي شمولية، وهكذا أصبحت بعض الفلسفات تعتبرها غاية يسير نحوها التاريخ، كما كان الحال لدى الفكر الألماني وهيجل على الخصوص. واعتبرت أيضا كهدف للفكر المطلق، الذي كان على الدوام يرى في الفكر أداة لبلوغ المطلق واستكشاف حقيقته، ويرى أن الحقيقة تأتي من الرغبة في الحقيقة بذاتها ومن القدرة وحدها على التفكير في الحقيقة. من ناحية أخرى، اعتبرت الحقيقة كشيء لا يمكن بلوغه سواء بالعقل أو التجربة، وهكذا تبقى الحقيقة بعيدة منا مهما حاولنا الاقتراب منها، ويكون عجزنا عن بلوغها هو الحقيقة المعترف بها، وتصبح الحقيقة شيئا في ذاته، في حين نكتفي بما تقدمه لنا التجربة من حقائق متغيرة على الدوام.

لكن، ألا يمكن أن تكون الحقيقة في تجربتنا وممارساتنا بالذات ؟ لقد ظلت ميتافيزيقا المطلق هي الموضوع المفضل الذي انكب فيه البحث عن الحقيقة، تلك الحقيقة التي لا يمكن إلا أن تكون حقيقية، أي تلك الحقيقة التي تجعل التاريخ حين بلوغها، متوقفا عن كل حركة، بحيث تصبح صيرورته كاملة وغير قابلة للتغير، ولأن التجاوز سيصبح مستحيلا، مادامت الحقيقة التي تم الوصول إليها حقيقة مطلقة.

غير أن هذا المفهوم، سيصبح على عكس ذلك، مع تصور جديد للتاريخ، فالتاريخ لم يعد هو ذلك النسق المتكامل والشامل والمتواصل دائما، أو تلك المجموعات المتعددة من الأحداث المتتالية والمتعاقبة التي ترسم عبر صيرورتها طريقا نحو الحقيقة التي لا تناقش، ولكنه أصبح مجموعة تواريخ خاصة متفرقة، فلم يعد هناك وجود لتاريخ شامل، وإنما تاريخ عام مركب من تواريخ خاصة، وهكذا حلت الانقطاعات والانفصالات والتبعثر محل الاتصال والتعاقب والشمولية.

ليس التاريخ الشامل إلا مجموعة تواريخ تنشأ من خصوصيات واختلافات. وإن كان للكوني من وجود، فليس له إلا أن يتشكل من مختلف الخصوصيات في العلاقات التي تقيمها مع بعضها البعض، ومفاهيم التقاطع والتبعثر والانفصال والقطيعة تأخذ مكانة أساسية في هذا التصور للتاريخ الذي انطلاقا منه، تظهر نسبية الحقيقة وتاريخيتها. ولعل أهم نتيجة لعمل فوكو في تأريخه للحقيقة وجعلها كغيرها من المفاهيم الأخرى تتعرض للتغيرات عبر التاريخ هو، بشكل من الأشكال، رسم لحدود العقل. هذا العقل الذي طالما اعتقد أنه ينبني على مبادئ شمولية قادرة على ضم كل شيء تحت لوائها، فالشمولي لا يمكن أن يكون إلا نتاجا عارضا على الدوام، ومحط نقاش لصيرورة من التعميم الذي لا يملك ضمانا لا في الكائن ولا في التاريخ.

إن كون التاريخ ليس شاملا وموحدا، يجعلنا نكتشف ذواتنا والعالم من جديد، انطلاقا من اختلافاته وخصوصياته، فالعالم ليس موحدا، إنه مجموعة أماكن متفاضلة تماما كالذوات، فلا الذات ولا المكان قابلان للتعارض. وهكذا يصبح مصيرها متعلقا بنوع العلاقات التي تقيمها فيما بينها، ومن هنا يبرز لنا فوكو أن كل إنشاد للشمولية، يتضمن رفضا لها وتكوينا لخصوصية معينة، فكل ما هو كلي هو كذلك خصوصي، وأن لا وجود لمعرفة مطلقة، فالتاريخ ليس سوى تعاقب من القطيعات والانفصالات وسلسلة من الحقائق المتغيرة التي تتموضع ضمن إحساس بالغيرية.

إن فوكو، بشكل ما، هو مؤرخ للرقابة والممنوعات والسلطة والحجز والمجتمع التأديبي انطلاقا من عمل ذي حدين: الجنون والعقل، الشذوذ وإقصاءه... الخ. إلا أن عمله كان دائما ذا بعد آخر هو الحقيقة، فالتاريخ الغربي ليس مفصولا في شيء عن الطريقة

التي تنتج بها الحقيقة. إنه يسير دائما نحو البحث عنها، وما هو هم الخطاب الذي ينتجه إلا الحقيقة ! فلا يمكـن الفصل بيـن التاريخ والحقيقـة وما هو خصوصي، وكل منهم يتأسـس علـى الآخر، وإنتاج الحقيقة يعني إنتاج الخصوصية، وما تاريخ الحقيقة إلا ما يسمح لنا بالتأريخ لهذه الخصوصية.

ولمـا أن هم فوكو هو البحث عن الحقيقة عبر تاريخ الغربيين، فإنه اسـتطاع أن يبـرز بأن الحقيقة، عبر هذا التاريخ، كانت دوما مرتبطة بالجنس، ولا يمكن فهمها بمعزل عن الذات الجنسـية. وهذا ما وضحه في أحد الاسـتجوابات حيث قـرر فيما يخص كتابه « إرادة المعرفـة « أنه يسـعى فيه إلـى تتبع خيط رفيع، هو ذلك الخيط الذي ربط، ولقرون طويلة، بين الجنس والبحث عن الحقيقة.

هناك علاقة تربط بيـن الحقيقة والذات، فالذات هي المكان الذي تقرأ وتغتصب فيه الحقيقة؛ والغرب لم يكـف منذ قرون عن الاهتمام بالجنس وكل ما يتعلق بـه، ووظف كل الإمكانـات، لا لقمعه كما كانت تعتقد الفرضية القمعية **hypothèse répressive**، وإنما لمعرفته. لقـد وظف الخطاب العلمـي والأدبي على السـواء من أجل معرفة حقيقـة الجنس، وأصبحت الحياة الجنسـية هي أفضل مكان تقرأ فيه الحقيقة. إنهـا المكان الـذي تنعقد فيـه حقيقة الـذات، وقد كانت مراقبة الجنس وفحصه وأشـكال الاعتراف به وتحويله إلى خطـاب، كان كل ذلك، نوعا من البحث وإنتاج الحقيقة. هكذا تصبح إرادة الحقيقة بشـكل أو بآخـر اسـتمرارا فـي البحث عن حقائق ليسـت بالضرورة جديدة ولكن مختلفة.

مـا يربط بين كتابـات فوكو، هو اهتمامه بشـروط الإنتـاج ومصداقية المعرفة والكيفية التي تتشـكل بها. وفي هذا الخط يطرح مشكل الحقيقة، لكن بعيدا عن الإبيستيمولوجيا السائدة: ما هي مدى صلاحية معرفة ما ؟ ما هو الخطأ وكيف يصحح ؟ كيف تصبح معرفة ما حقيقية ؟ فالحقيقة لم تعد معه متوقفة على مراجعة المعارف وتصحيح الأخطاء، وإنما أصبحت تتوقف علـى المجال المعرفـي واقتصاديات علاقة المعرفة بالسلطة.

يعبـر فوكـو بمفهـوم الإبيسـتيمي، عـن مجموعة الممارسـات الفكرية والاسـتدلالية التي تحكم فترة زمنيـة معينـة وتجعلها تسـير وفق أنمـاط معينة من التفكير وإرادة المعرفـة وإرادة الحقيقة. بحيث يكـون هذا المفهوم مفهومـا ينفي كل وجود لمعرفة أو حقيقة مطلقة. فمادام التاريخ هو مجموعة أنظمة فكرية تتعاقـب وتختلف جذريا، فـلا مجال لحقيقة مطلقة، وإنما هناك حقائـق خاصة ومختلفة تتحدد بحسب نظامها الفكري.

هنا يكون الإنسـان، لا الحقيقـة الثابتة التي تجمع بين مختلف الأنظمة، ولكـن تلك الإرادة التي تبحث دوما عن حقيقة مختلفة، تجعله مختلفا ضمن مجرى التاريـخ. هكـذا تصبح الحقيقة مبدأ للتقسـيم بين العبارات التي لا يمكن الجزم بصحتها أو خطئها إلا في ارتباط ببعض أنظمة التحقق.

لا وجـود إذن لحقيقـة أو لحقائـق، إلا فـي ارتباط بنظام فكري معين، ويحيلنا مفهوم الإبيستيمي على التاريخ المجزأ والخاص، حيث يجد الكوني نفسـه مخصصـا؛ وإن كان ثمـة تاريخ، فليس شـيئا آخر غير مجموعة أنسـاق تفكير خاصة، حيث تتموضع أشـكال من الحقيقة لتمارس سـلطتها على الذوات وممارسـاتها. ولعل ما يؤسـس نظاما فكريا ما هو إرادة المعرفـة وإرادة الحقيقـة التي تفرض أنماطا معينة من السلوك والتفكير والممارسات.

تشـكل إرادة المعرفـة عنصـرا خطيرا فـي إنتاج الحقيقة والمعرفة والسـلطة، فالسـلطة الممارسـة على الجنـود، أنتجت خطابا طبيـا حقيقيا؛ ونفس الشـيء بالنسـبة للجنس حيث الرغبة في المعرفة التي سلكتها السـلطة تجاهه. ومن هنا فإن التأريخ للحقيقة يعني التأريخ لتلك السـلطة التي يتميز بها الخطاب السائد على أسـاس أنه خطاب حقيقة. من هنا، فـإن فوكو يتصور الحقيقة، لا كاتفاق بين فكر وموضوع، بل باعتبارها ذلك الشيء الذي يرغم فكرا ما على التفكير بطريقة معينة، أو اعتبارها انشـغالا بالذات، وبالآخرين على نحو لا يقبل الانفصال.

تنفـي إمكانيـة وجود تاريـخ للحقيقـة كل إمكانية لتوقـف التاريخ، في نفس الوقت الذي تؤسـس فيه تاريخـا عاما؛ إنـه تاريخ الـذات وتاريـخ المعرفة وتاريخ السـلط الممارسـة، فتاريـخ إرادة الحقيقة هو تاريخ مخططات، يشـمل جملـة المواضيع التي ينبغي أن تعـرف وتاريخ لأوضـاع ووظائف الذات

العارفة، وتاريخ الاستغلال المادي والتقني والأداتي للمعرفة.

وقد كشف فوكو من خلال جنيالوجيا علاقات الذات بالحقيقة، أن الذات الغربية وإرادة المعرفة الخاصة بها، لا يمكن إلا أن تكون خاصة في حدود هيمنتها على ذاتها، أي حدود فهم غيرية الآخر الذي يرفض موضوعيتها، وكشف أن العقل يتأسس على مبدأ تقسيم وإلغاء و رفض، لا على مبدأ شمول وضم واحتضان، فلعبة الحقيقة ولعبة العلاقات بين السلطة والمعرفة هي لعبة ممتنعة وغير قابلة لأي مبدأ شامل.

إلا أن جينيالوجيا الحقيقة هذه، لا تفيد أننا خارج الحقيقة أو استحالة المعرفة نهائيا، كما لا تعني حتمية الخطأ، فالخطأ نفسه يعمل داخل الحقيقة؛ كما أن حياتنا هي دائما ضمن إحدى عناصر الحقيقة. وهكذا تمارس بدورها أشكالا أخرى من السلطة على كل ممارساتنا وسلوكنا، وما الخطاب سوى إحدى المناطق الأكثر تعرضا لهذه الأشكال من السلطة، فإرادة الحقيقة ترمي إلى ممارسة نوع من الضغط على كل الخطابات الأخرى حتى لكأنها سلطة إكراه، وما يجعل إرادة الحقيقة آلية من آليات النبذ والإكراه، هو كون الخطاب الذي يحملها يمارس سلطة ويستجيب لرغبة.

ولو كان هذا الخطاب خاليا من كل رغبة ومتحررا من كل سلطة، لما استطاع التعبير عن هذه الإرادة التي تخترقه. إضافة إلى كون إرادة الحقيقة التي تفرض نفسها علينا، هي الحقيقة التي تساند هذه الإرادة، وتستند هذه الإرادة أيضا على دعامة قانونية، ويتم تعزيزها وصيانتها والمحافظة عليها، بمقتضى الوسائل والكيفيات التي تستعمل وتتوزع بها المعرفة. نستطيع إجمالا أن نقدم بعض الاقتراحات التي تقدم بها فوكو، والتي نعتبرها ذات أهمية بالغة، علاقة بمفهوم السلطة من جهة وبالنزعة الإنسانية من جهة أخرى:

إن مجال المقاومة هو الاحتكاك اليومي والضروري للأفراد والجماعات مع المؤسسات والأجهزة، وموضوعها هو حاجيات الناس اليومية (الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية...الخ)، والأحزاب والنقابات والمنظمات غير الحكومية هي الأخرى أشكال نهائية للسلطة من حيث كونها تتموضع كمقاومة.

إن الثورة هي انهيار تام للسلطة، أي انهيار بنية العلاقات برمتها، انهيار شامل للسلطة في جميع مظاهرها بما فيها المقاومة، وربما لهذا السبب قيل إن الثورة تأكل أبناءها.

تترك نظرية فوكو في السلطة الباب مفتوحا أمام الفرد وقدرته على المقاومة وإنجاز التحرر المباشر وغير المباشر، وتبين ميكروفيزياء السلطة، النقط التي عندها تتصاعد دينامية السلطة والمقاومة.

لا تستند ممارسات الدولة وخدماتها على أساس الأخلاق، بل، على منفعة الدولة وقوتها واستمرارها كسلطة بهذا المعنى المفتوح والواسع.

إن المذاهب الإنسية والجمعيات المدنية هي نفسها مقاومة وهي نسبية وجزئية ولا يمكن أن تكون مطلقة، أي أن الأخلاق التي تستند عليها هي أيضا نسبية ومؤقتة وغير مطلقة ومتحركة، فليست هناك قيم ثابتة ومطلقة، من هنا انهيار النظرة الكلاسيكية للقيم والأخلاق، ومن هنا حضور أخلاق الإنسان ومسؤوليته.

ليست هناك تجمعات مدنية صافية(جمعيات مدنية، نقابات، أحزاب ...) بل هي تجمعات مصالح وتوازنات، من هنا انتفاء قيمتي الخير والشر، فليس هناك خير مطلق ولا شر مطلق.

إن ما يحرك البشر والسلطة نفسها، هو ذلك التعارض بين الحرية والرغبة، حرية الفرد أمام الآخر.

نعتقد أن ميشيل فوكو قد نقل إشكالية السلطة، من الفهم المحدود والضيق إلى الفهم الأرحب والأوسع، وهو بذلك قد ساهم بوضوح في إبراز نزعة إنسانية جديدة، أكثر جرأة وواقعية ودفعا لتحرير الإنسان، كما أنه ساهم في إظهار مفهوم جديد للحقيقة في بعد عن ميتافيزيقا القرن التاسع عشر.

كان تصنيف فوكو ضمن التيار البنيوي، ونقده للنزعة الإنسانية، من الأسباب التي منحته منزلة خاصة ومتميزة جدا. من جهة أخرى نظر إليه بوصفه مضادا لسارتر، وهذا ما دفع العديد إلى طرح العديد من الأسئلة حوله، خصوصا السؤال فيما يتعلق بالمسار الذي سيؤدي إليه بأسلوبه وأسئلته الجديدة والمختلفة جذريا؛ والواقع أن

مجال السياسة هو الذي جعل فلسفته تصبح فلسفة الفعل والتأثير في الحياة العامة، وتعني الفلسفة بوصفها فعلا، أن فوكو جعل من أعماله ومواضيعه أعمالا مرتبطة بالحياة السياسية. غير أن السياسة عند فوكو، لا تعني ذلك الارتباط التقليدي المألوف بجهة سياسية معينة، مؤسسة كانت أو تيارا، السياسة عنده هي التفكير في أمور الإنسان التي هي أمور سياسية، لكن من خارج السياسة، ومن وجهة نظر الفكر المتسائل.

وحينما كتب فوكو « تاريخ الجنون » بدا كتابه وكأنه تحفة أدبية عن الجنون، لكن سرعان ما تبين أن هذا الحديث الجينيالوجي عن الجنون هو حديث سياسي بامتياز، أي أنه تناول موضوعا له خطاب الجنون الذي تم إقصاءه واختزاله إلى الصمت خلال قرون. يتعلق الأمر بالحديث عن الاضطهاد السياسي، لكن من منظور فلسفي نقدي، وهو الأمر الذي عجزت كل التيارات أو المؤسسات السياسية أن تقوم به، بل أكثر من ذلك، إن هذه المؤسسات السياسية، قد حاربته أو في أحسن الأحوال واجهته بالصمت، وقد أشار فوكو إلى هذا حينما تحدث عن موقف الأطباء الماركسيين مثلا من الشذوذ الجنسي.

وحينما كتب فوكو « المراقبة والعقاب « كان الأمر أكثر وضوحا، لأنه تناول المؤسسة السجنية وتاريخ العقاب والمراقبة ومسألة السلطة، فكان كلامه فلسفيا نقديا عما هو سياسي، واستطاع أن يعري ويفضح ما لم تستطع مؤسسات بكاملها أن تفعله. كان فوكو في هذا بوزن مؤسسات وليس فقط مجرد فيلسوف معزول ووحيد، وربما أن عدم انتمائه السياسي التقليدي هو الذي مكنه من الحرية التامة لقول ما ينبغي أن يقال، وذلك ما لا يستطيع السياسي المحترف والمنتمي أن يقوم به.

كانت « الكلمات والأشياء « و» إرادة المعرفة«و» تاريخ الجنس « في مفعولاتها وموضوعاتها في نفس الاتجاه، وهو إبراز وتفكيك أهم القضايا التي تهم الإنسان والمجتمع، وبذلك ظل فوكو، فيلسوف الفعل philosophe de l'acte الذي يطارد التباسات السلطة حيثما كانت، والذي يحيط بالإنسان والمحتمع في كل أشكال معاناته.

لم يتخذ فوكو قط من الكتابة هدفا، وهذا ما يجعل منه كاتبا كبيرا يضع الفرحة والابتسامة فيما يكتبه دوما بشكل بديهي، إنها كوميديا مقدسة عن العقاب: الحق الأكثر استحقاقا للافتتان حتى الضحك الجنوني أمام هذه الاكتشافات الشاذة، وهذه الخطابات الكلابيةcynique ، وهذه الفظائع الدقيقة...» ليس هناك من أمر فضيع أكثر من الأحقاد الميتة التي تحمل معها الموت في كل مكان، أبعد مما وراء موضوعات حقدها »[29]

لقد عرف فوكو دائما رسم لوحات رائعة على ضوء تحاليله، فهنا يصبح التحليل أكثر فأكثر ميكروفيزيائية، واللوحات أكثر فأكثر فيزيائية، معبرة عن مفعولات التحليل، لا بالمعنى السببي، بل بالمعنى المرئي والمضيء والمتلون: من الأحمر على الأحمر للتعذيب، إلى الرمادي على الرمادي للسجن، التحليل واللوحة يمشيان بشكل متواز، ميكروفيزياء السلطة و» الاستثمار السياسي للأجساد « إن ما ميز اليسار هو دائما هذا التساؤل المستمر عن مسألة السلطة، سواء كان ذلك ضدا على الماركسية أو البورجوازية، يعني أنه صراع ونضال محلي ومختص في بعد عن كل شمولية أو مركزية، فهذين الميزتين، العملية والنظرية، مرتبطتين دوما.

إنه يمثل نموذج المثقف الذي يناضل في معركة خاصة من أجل حق السجناء، ثم يكتب عن السجن، حيث يعرض نظرية جديدة في السلطة، كنا نبحث عنها وما كنا نعرف كيف نصل إليها:

-1 مسلمة الملكية

-2 مسلمة المقر

-3 مسلمة التبعية

-4 مسلمة نموذج الحركة

-5 مسلمة الشرعية. في هذه المواقف التي أعلن عنها فوكو، هناك ثورية، ليست فقط ضد النظريات البورجوازية للدولة، بل أيضا ضد التصور الماركسي للسلطة وللعلاقات مع الدولة، إن شيئا جديدا قد برز بعد ماركس.

ما معنى البانوبتيكpanoptique؟ إنه ليس نظرية، ولا نموذجا محددا، إنه آلة تشتغل، ولكنها آلة من

29- Deleuze G. : « Ecrivain non: un nouveau cartogr - phe » in, Critique, décembre, 1975, Paris, France, page N° 3434.

نـوع خاص. إنهـا تتحدد بوظيفة خالصة مسـتقلة عن المظاهر الحساسـة والأشـكال المحدودة التي تتجسـد فيها هذه الآلة. وظيفتها هـي أن ترى دون أن تـرى، إنها تتحـدد بمادة خالصة مسـتقلة عن المواد المتميزة التـي تدخل فيها مـواد الانحراف، والمستشفى والمعمل والثكنة... الخ. هـذه المـادة هـي آلة تعددية إنسـانية، والتي ينبغي حسـابها ومراقبتها، إنه ليس نموذجا يطبق، بل ورشة.

يقول فوكو: « إنها ورشة لميكانيزم السلطة بوظيفة مجردة من كل عوائـق أو مقاومة أو احتكاك، والتي ينبغي عزلها عن كل اسـتعمال محدد»[30]، ما يهم هو هـذه المحايثة للورشـة، هذه الورشـة هي خريطة. إن محايثة السـلطة أي الورشـة نفسـها، تنمي كل النتائـج من خلال زوجيـن : - المجهولية الفردية – الاستمرارية.

يقول أيضـا: « هذه الآلـة المجردة، وهذه الورشـة المحايثـة للمجال الاجتماعي، تجعـل من المجتمع مجتمعـا نظاميا.»[31] مراقبا ومطوعا، تعيش الذوات فيه طيعـة ومرنة، مسـتجيبة لمتطلبات السـلطة، متماشية معها وقابلة لها.

يعني مصطلـح المراقبة عند فوكو في مرحلة أولى، سلسـلة من ميكانيزمات المراقبـة التي ظهرت بين القرنين الثامن والتاسع عشر، والتـي كان دورها ليس معاقبـة الانحـراف أو تصحيحه ولا حتى الوقاية منه. هذا التوسع في المراقبة الاجتماعية مرتبط بتوزيع جديد لفضاء ومجتمع الثروة الصناعية والفلاحية: إنه تشـكيل المجتمع الرأسمالي، أي ضرورة مراقبة الروافد والتوزيع الفضائي لليد العاملة واحتياجات الإنتاج وسـوق العمل، والذي يتطلب ضرورة ترميم **orthopédie** اجتماعـي حقيقي، حيـث يصبح من اللازم تنمية الشـرطة ومراقبـة الجماهير، باعتبار ذلك الأدوات اللازمة؛ يعنـي مصطلح المراقبة كذلك أحيانا عند فوكو ميكانيزم لجعل المعيار ثابتا.

إن «السـلطة وعلاقـات السـلطة هي فـي كل مكان من الشـبكة، تتمدد السـلطة في كل الآلة المجردة، وتشـتغل في كل آلـة ملموسـة؛ وهـي تضمن في المجـال الاجتماعـي التمييز والتعديـل المتبادل، والتجانـس وتلازم أشـكال المحتـوى، والتعبير وأنظمة المواد الفاعلة، وأنظمة العبارات المسيطرة والتشـكيلات غير الخطابيـة والخطابية لمجالات الإدراك والمعرفة »[32]، إذ ينبغي أن تظل الممارسات الفرديـة والجماعية، قابلـة للتكميـم والتكييف، أي للإنتاج والتوليد.

يعنـي مصطلـح البيـو- سياسـة **biopolitique** الطريقـة التـي بهـا تحولت السـلطة، بيـن القرن الثامن عشـر والتاسع عشـر، بهدف حكم، ليس فقط الأفـراد بعدد مـن الطـرق النظامية، بـل مجموعة الأحيـاء المكونة داخـل الجماهير: البيو- سياسـة **biopolitique** – مـن خـلال البيـو- سـلطة **biopouvoir** المحلية – وتتكلف بتسـيير الصحة والنظافة والتغذيـة والجنـس والتوالد...الخ، في الحدود التي تصبح فيها رهانات سياسـية، وتعني البيوسياسة**biopolitique** كذلك وبمعنى معاكس، الطـرق التي يمكن الإجابة بها عن هذه السـلط على الحياة، أي الشروط الممكنة لممارسة الحرية والتي تكون منغرسة في قوة الحياة.

ظهر موضوع الجنـس إذن عند فوكو، ليس بوصفه خطابا عـن تنظيم الجسـد ولا بوصفه دراسـة عن السـلوك الجنسي، ولكن كامتداد لتحليل السلطة: يتعلـق الأمر بوصف الطريقة التـي بها، وانطلاقا من نهاية القرن الثامن عشـر، اسـتثمرت السـلطة عبر خطابات وممارسـات الطب الاجتماعي عددا من الأوجه الأساسـية لحياة الأفـراد: الصحة والتغذية والجنـس... الخ. الجنس هو إذن فـي مرحلة أولى، ليس سـوى مجالا لتطبيق ما يسـميه فوكو في تلك المرحلة البيو- سـلطة. في مرحلة ثانية، سـيصبح الجنـس هو التحليل المفضـل بوصفه مكان تجربة العلاقة مع الذات: الجنـس، بوصفه أكثر من عنصر فـردي، والذي سـيوضع خارجا عنه، هـو بناء لهذا الربط الذي يفرض على الناس أن يقيموه مع هويتهم في شكل ذاتية. يصبح مشـروع تاريخ للجنس إذن، تسـاؤلا عن الطريقة التي بها سـاهمت الممارسات والخطابات في جعل الجنس في الوقت نفسه، رهان

30 28- Ibid.

31- Ibid.

32- Ibid.

للسلطة وأداة لتشكيل الذات.

و إذا» كانت النضالات لا تحصل بالضرورة عن طريق الماركسية، فلأن هذه الأخيرة وهي تعرف السلطة بالدولة، فإنها تعارض النضالات الشعبية الحقيقية ضد ميكانزمات السلطة.»[33] لهذا ابتعد فوكو عن الفهم البسيط للسلطة عند الماركسية، فهذه الأخيرة لا تحلل السلطة من خارجها قصد تشريحها، إنها تحللها كما ينبغي أن تكون، وبذلك فإنها لا تخرج عن الإطار الذي تصورته البورجوازية؛ وهذا في الواقع أمر طبيعي مادامت تسعى لأن تكون في ملك البروليتاريا أي السلطة وهي في ملكية الطبقة العاملة.

يضع المثقف الماركسي بناء على ذلك، نفسه في خدمة هذه البروليتاريا، على الرغم من أنها ليست طبقته، وهو يفعل ذلك من وجهة نظر الماركسية، لأنه صاحب الفكر الثوري الذي سينير عقل الطبقة العاملة ويثقفها بفكرها المناسب لها. إن المثقف في هذه الحالة ممثل للطبقة **représentant**.

يختلف الأمر بالنسبة لميشيل فوكو كما يرى دولوز: «بالنسبة لنا نحن، لم يعد المثقف المنظر ذاتا، أو وعيا ممثلا وتمثيليا، والذين يؤثرون ويناضلون قد كفوا عن أن يمثلوا، كان الحزب أو النقابة، تعطي لنفسها الحق في أن تكون وعيهم. تتكلم وتفعل ؟ إنها التعددية دائما، وحتى في الفرد نفسه هي التي تتكلم أو تفعل. نحن كلنا مجموعات صغرى **groupuscule** ولم يعد هناك قطعا من تمثيل، هناك فقط الفعل، وفعل النظرية، وفعل الممارسة في علاقات السلطة والشبكة»[34].

نعتقد أن هذا الموقف يشير إلى أكبر المطبات فداحة التي وقعت فيها الماركسية، لأنها سمحت لمجموعة بشرية أخرى بمصادرة المشروع الشيوعي برمته، ومن ثمة، كانت فكرة النخبة المثقفة التي « وهبت » نفسها لخدمة هذه الطبقة، والتي عليها أن تؤسس الحزب الثوري الذي يقود الثورة وينجح المشروع، فالطبقة العاملة في انتظار أن تكتسب الوعي الطبقي، عليها أن تقبل هذا الكرم الآتي من المثقفين الثوريين الذين سيذوبون في الطبقة العاملة، ويسمي الماركسيون هذا بالانتحار الطبقي، أي المجموعة التي ستنزع وتطرد ما فيها من طبقتها لكي تخدم العمال ومشروعهم الثوري، ستطرد وعيها الطبقي الخاص بها، لتتبنى وعي البروليتاريا.

من دون شك، أن هذا الاقتراح هو ذو نزعة إنسانية فائقة ورومانسية ورائعة أيضا بما تعطيه من مثال في الغيرية التي لا يوجد لها مثيل سوى في المسيحية والمعتقدات المفرطة في الحساسية تجاه الإنسان، وخصوصا الإنسان العامل والبروليتاري تحديدا. هذا الاقتراح الإنساني الجميل بدون شك، والذي نال إعجاب سارتر بدوره، يصنع المفارقة وخط التقسيم منذ البداية: اصطفاف الوعي مع اليد العاملة، قيادة الوعي للجسد، وتقويم الصواب للخطأ حتى قبل أن يكون خطأ !

هذا الكائن الذي سماه غرامشي**Gramsci** المثقف العضوي الذي يلتحم بالعمال كما التحم المسيح بالعامة من الناس، تفترضه الماركسية كائنا خاليا من الرغبة أو قادرا على الخلو من الرغبة لصالح رغبة أخرى ليست له؛ أليست الإيديولوجيا بمعنى من المعاني هي تبني إشكالية الغير ؟ غير أن إرادة القوة تصر على أن تكون، فتتحول الأمور إلى مجراها الطبيعي ونصبح أمام تجربة يحكمها نظام شمولي، يبدد كل الأحلام ويصنع الاستعباد في أقصى صوره، حيث لا مصلحة تعلو فوق مصلحة السلطة التي تتقوى أكثر فأكثر، بترويض البشر ووضعهم في مربعات لإنتاج قوة السلطة في كل المناحي، وحيث الفرد يضحي بحياته التافهة لفائدة المشروع الذي لا يعدو أن يكون شكلا آخر للسلطة.

تبدو مسألة المثقف انطلاقا من هذه التجربة مرفوضة قطعا عند فوكو الذي استوعب جيدا رمزية ستالين، ومن هنا فإن المثقف ينبغي أن يكون أكثر تواضعا، أو بالأحرى أقل مكرا إذا أراد أن ينخرط بالفعل في عمل إنساني محدد؛ بمعنى آخر أنه على المثقف أن يكف عن ادعاء دور التمثيلية ودور الحديث باسم الآخرين ومن ثمة مصادرة صوتهم وإرادتهم في الحقيقة.

يقول: « يبدو أن التمثيل السياسي للمثقف أصبح

---

33- Ibid.

34- Foucault M. : « Les intellectuels et le pouvoir » Entretien avec Gilles Deleuze, in Dits et écrits, n°106, 2008.

تقليديا أكثر فأكثر، انطلاقا من أمرين: وضعه كمثقف في المجتمع البورجوازي... وخطابه الذي يعبر عن قدر من الحقيقة، حيث يكتشف علاقات السياسة هنا في المكان الذي لا تدرك فيه»[35]، غير أن المثقفين هم أيضا جزء من نظام السلطة، خصوصا حينما يعتبرون أنفسهم وكلاء الوعي والخطاب الذي هو جزء من السلطة [36] وبالتالي فإنهم يصبحون عائقا أمام ما يمكن أن يكون حقيقة وصوت الآخرين الفعلي.

حينما يتكلم الأفراد، مهما كانت اتجاهاتهم وانتماءاتهم، فإنهم حسب فوكو، يستطيعون الحديث عن حقيقتهم بشكل أفضل، وقد لا يحتاج ذلك، لا إلى اللغة التعبيرية الراقية، بل قد يحتاجون فقط للغة أخرى مباشرة وحتى غير عقلانية، فحينما تنزل العامة إلى الشارع لكي تطالب بالخبز، وبما هو أفضل من مجرد الخبز وبالحرية وممارسة الرغبة... الخ، عن طريق الصراخ وتكسير الأبواب وكل ما هو ماثل أمامهم، فإنهم يكونون بذلك يعبرون بلغة مباشرة أي لغة جسدية.

وعلى سبيل المثال:» حينما يتكلم السجناء، فإن لهم هم أيضا، نظرية عن السجن والعقاب والعدالة. إن هذا الشكل من الخطاب ضد السلطة، وهذا الخطاب المضاد للمساجين أو أولئك الذين يسمونهم المنحرفين، هو الذي يهم أكثر، وليس نظرية ما عن الانحراف»[37]، فالهدف الحقيقي الذي ينبغي أن نصل إليه حسب فوكو، هو صوت هؤلاء السجناء وما يروونه حول السجن ومفعولاته، وليس تكوين نظرية معينة عن السجن، إذ ليس هناك أبلغ وأقوى من صوت المعنيين بالسجن، أي الذي تحملوا عنفه.

يقول أيضا: « بصفة عامة، أليس النظام الجزائي هو الصورة التي تظهر فيها السلطة بما هي سلطة في الشكل الأكثر بروزا ؟ أن تضع شخصا ما في السجن وتحبسه فيه، وتحرمه من الغذاء ومن الدفء ومن الخروج ومن ممارسة الجنس...الخ، فإن هنا بالضبط، تتظاهر السلطة في أقصى حالة الهذيان الذي يمكن أن يتصور «38، إن السجن والحالة هذه، هو فعلا، المجال الذي تنفضح فيه وتتجلى أبشع وأقوى صور السلطة، بما أنه المجال الذي فيه تسمح لنفسها تحت كل المبررات أن تمارس قوتها الأقصى.

إن « السجن هو المكان الذي تستطيع السلطة فيه، أن تتظاهر بوضوح في أبعادها الأكثر قسوة، وأن تبرر نفسها كسلطة أخلاقية: لي الحق الكامل في العقاب، بما أنك تعرف أنه من غير المقبول أن تسرق أو تقتل «39. إن كل شيء تمارسه السلطة هنا، حتى الأكثر استبدادا يصبح مبررا باسم الخير ضد الشر... ومن ثمة، ف» إن الصراع ضد القانون هو صراع ضد السلطة «40، وهذه المقولة هي الأكثر كرها لدى السلطة، لأنها تمس أخطر أدواتها: الصراع ضد القانون بوصفه صراعا ضد السلطة ! أليس القانون من إنتاج السلطة ؟ أليس القانون هو الذي يحدد ما ينبغي أن يفعل، وما لا ينبغي أن يفعل، ما هو مقبول وما هو غير مقبول ؟ أليس ما هو قانوني في سياق ثقافة ما، هو غير قانوني في سياق ثقافة أخرى ؟ فما هذا الشيء الذي نسميه القانون وما هي طبيعته ؟ وبذلك تكون مقاومة القانون بمثابة ضرب السلطة في قلبها.

غير أنه كما يقول دولوز: « ليس السجناء وحدهم الذين يعاملون كأطفال، بل إن الأطفال أنفسهم يعاملون كسجناء. الأطفال يتحملون شكلا من الطفولة التي هي ليست طفولتهم «41، ففي المؤسسة التربوية، يقسم هؤلاء الأطفال وفق مربعات وتقنيات دقيقة جدا، وحسب استراتيجية هادفة ومركزة للترويض والتطويع عن طريق مصادرة الكلمة والصوت، وفرض لغة أخرى ليست بالضرورة هي كلام وصوت الأطفال؛ وكذلك هو الشأن في المعامل والثكنات والمستشفيات... الخ، المقصود هو الأجساد وما فيها من أرواح بالمعنى الذي تحدث عنه فوكو في «المراقبة والعقاب ».

35- Ibid.
36- Ibid.
37- Ibid.
38- Ibid.
39- Ibid.
40- **Ibid**.
41- Ibid.

يقــول فوكو: « إن ما يجعل النضال أمرا معمما، هو النظام نفسه للسلطة، وكل أشكال السلوك والممارسة للســلطة «[42] وبهذا الشــكل، تظل الماركسية خارج الفهم العميق للســلطة، أو بالأحــرى تظل وجها من وجوه الســلطة. على المثقف إذن أن يختار أن يكون جزءا من الســلطة أو جزءا مــن المقاومة، وفي هذه الحالــة ســيكون دوره توفير الظروف التي تســمح لخطاب مقاوم أن يبرز ثم يترك الشأن لأصحابه، أما لمــاذا ينبغي تبني هذا الاختيار، فإنه يعود إلى فهم مغاير للأخلاق والنزعة الإنســانية، وفي هذا الباب فقــد كان فوكو نفســه نموذجــا فريدا فــي التجربة المعاصرة، ولا شــك أن نماذج عديدة لهذا النوع من المثقف بدأت تبرز على الساحة.

صــورة الفيلســوف التــي تهيمن لدى البشــر، هي تلك الصورة لشــخص مغبون وقليل الفرح ومكتئب، شخص عذبه فكره وإحساسه، فصار يكثر من الابتعاد عن البشر والعامة وحتى عن الأشياء الدنيوية، وكأنه ناســك زاهد في الحياة، همه الوحيد هو التفكير في الســؤال العميق: لمــاذا ؟ نتذكر هنا تلــك الصورة الدالة حيث يرافق فيها أرســطو أســتاذه أفلاطون، وفي الوقت الذي ينظــر فيه الأول إلى الأرض، ينظر الثانــي إلى الســماء ! كمــا نتذكر صــورة ديوجين Diogène الــذي يبحث في واضــح النهار بقنديله المشــتعل عن الحقيقة، وهو يتجــول في الأزقة بين النــاس غير مكترث بهؤلاء، كما نتذكر الناســك الذي صادفه زرادشــت في الجبل، ولا تبعد صورة العديد من الفلاســفة عن هــذه الصورة، وكأن ســرا عميقا وجلــلا يرتبط ويرافق هؤلاء. غيــر أن جيلا آخر من الفلاســفة أعطى صورة أخرى عن الفيلســوف الذي يبحث عن الناس ورأســه مملــوء بالحيوية والخفة، كما هو الحال بالنســبة لنيتشه، الذي انتفض بقوة وغــادر الكهف في أعلى الجبــل، لكي يعاكس ويقلب الوضع، وذلك بالاتصال بالإنسان والبشر الطبيعيين الموجودين على الأرض.

قد تبدو هذه الإشــارة بعيدة عن الموضوع، والواقع أنها في نظرنا تكتسي دلالة كبيرة وقوية جدا، فهناك إشــارة إلى فرق مهم وحاســم في مظهر الفيلسوف والمعنى الذي يرمز إليه؛ وبالنسبة لفيلسوف بحثنا، ميشــيل فوكو، فإن الأمر يتعلق بشخص لم يوح ولو لمرة في حياته أنه في سدة عالية، يرمي منها بالأفكار والوعي والحقيقة على النــاس، وخصوصا الوعود والأحلام الوردية. إنه كان بالأحرى أشبه بالمرآة ذات المائة وجه كما قال نيتشــه، يتجول بين البشر، ولا يعمل فقط على كشــف الحقائق عبر التأويل الماهر لأوجه الوجود المتعددة والملتبسة، بل يصنعها في قلب الأحداث، أحداث البشر الحقيقيين، وبذلك ينفذ إلى قلب الحياة في مجموع أوجهها.

عكس فرانسوا إيوالد François Ewald بقدر كبير، المظهــر الفريد من نوعه لفوكو بوصفه الفيلســوف الــذي لم يكن له ســوى موضــوع واحد: الإنســان؛ ونســتغرب كيف نظر إلى فوكو تلــك النظرة الجافة لمــدة طويلــة، دون القدرة على الانتبــاه إلى فعالية هذا المثقف، الذي لم يترك ميدانا للإنسان إلا وطرقه وانغمس فيــه بحثا وتفكيكا وتحليلا، لا لتأســيس نظريــة أو مدرســة، وإنمــا لعكس صورة الإنســان المعاصر.

يرى إيوالد أن النقد المعاصر للعلم والأســئلة التي نوجهها له، ســواء فيما يتعلق بشــروط إمكانه، أو علاقاتــه ببعــض بنيات الســلطة، توجد في كتب ميشــيل فوكو كلها، في ثنايا « الكلمات والأشــياء « وفــي « أركيولــوجيــا المعرفة «: مســألة الحقوق والحكــم والعدالة والعقاب أصبحــت أمرا ثابتا كما هــو الحال فــي « المراقبة والعقــاب « وقبلها في « تاريخ الجنون « و» نشــأة الطــب العيادي «، فلديه نجــد أيضا الســؤال حــول الطب المعاصــر، ثم إن جنيالوجيــا الأخلاق منذ بدايــة الثمانينات طرحت بوضوح وحدة، لا من باب الصدفة، بل من باب المثقف الذي كان له إشــكالا مركزيا هو الإنســان، وبالتالي فإنــه كان الرائد الذي نجد عنده طرح النموذج الذي شــكله وجود الفرد المعاصر؛ فلماذا وصفت فلسفته بالمضادة للنزعة الإنســانية ؟ في الواقع لم يكن هذا التصنيف سوى رد فعل لفكر الستينيات الذي لم يكن قــادرا على فهم التعديل الجذري في الفكر الذي تقدم به فوكو.

لايــزال عمــل فوكو، وبقــدر مرور الســنين، فارضا راهنيته وجدته وطريقته في جعل التفكير في حاضرنا

42- Ibid.

تفكيـرا وجيها ولا مفـر منه، ذلك أن أسـئلته كانت ولازالـت ملتصقة بمعاصرتنا إلـى درجة أنها لازالت في حاجة إلـى المتابعة والتوسـيع. يقول فرنسوا إيـوالـد:» ينبغي الخـروج من النظـرة التعميمية لفوكـو، الخروج من فوكو المصالـح، والخروج من فوكو كسوسيولوجي مبسـط للمعايير والهوامش، والخروج مـن فوكو المرتبط فـي الأصل بكل أوجه الإنسـان اليسـاري أو المتطرف. إنه لم يكن يتحمل الإيديولوجيـات، وكان يرفـض الكلام الذي لا يكون هو مؤسسـا فيه، كما كان يلفظ أشكال التكرار، فكان غيـورا جدا على حريته لكي لا يمنحها في أية قضية كانت»[43]. يتعلق الأمر بإخراج فوكو من التعميم الذي نسـب إليه حول السـلطة والتطبيـع، ويتعلق الأمر كذلـك بالابتعاد عن كل هذا المعجـم الذي ألحق به، والذي كان هو نفسـه يحاول تكسيره. لقد تم الخلط دوما بين الموضوعات التاريخية التي شكلت موادا في مختلف كتـب فوكو، وأشـكال التقييم التي كان يعتقـد أنه تـم جلبها من كتبه، مع فلسـفته التي لم تكـن توجد بشـكل ما إلا في الحفر، وفي الإشـارات المنهجيـة، وفي كل كلامه المفتـوح والمقتضب في الوقت نفسه عبر الحوارات معه.

إن فوكو حسـب إيوالد، وهو الأمـر الذي نعتقده، « ليس فيلسـوفا بالمعنـى الذي يفيـد تكوين مذهب يفسـر التزاماته، إنه يوجد فـي حياته، وحياته هي حياة فلسـفية بطريقته التي كان يسكن بها الحاضر »[44] وكذلـك « بابتكار اختياراتـه التي لـم تكـن قـط مبرمجة ومبنية ومهيأة سلفا، وبقراراته التي حملت دومـا مخاطرة الرفض أو المطالبة »[45]، إنه لم يعرف الراحة إطلاقا أو التسـاهل أمـام القضايا التي كان يعالجها ويكتشفها، لذلك « ينبغي البحث عـن فوكو فـي لمعانه الخاص وغير المسبوق، ينبغي إرجاعه إلى غرابته المشروعة »[46].

لقد كان له أسـلوبه الخاص في الفلسـفة، وكانت له ممارسـته الخاصة في الفلسـفة، وهي لا توجد في الفلسـفة الجامعية؛ يعني هذا أن « فوكو كان يؤلف كتبا بتقنيات المؤرخ**historien** ، لكنها تكتب دائما بأسـلوب محضر جدا. ليست الكتابة لديه في خدمة الفكرة أو لترجمتهـا، بل لبنائها في موضوع متفرد دوما حيث ينساب الحاضر»[47].

وعلى عكس النظرة المتعالية للفيلسـوف كما أشرنا سابقا « كان فوكو يتدخل في الراهن السياسي حسب برنامج لا يتبع أية إيديولوجيا سياسية، بل يخترق منطقهـا »[48]، لذلك فقد جمع بيـن الكاتب والمدرس والمثقف، وهي الصفات التـي لازمته بما تحمل من مخاطـر. كان يمارس الفلسـفة على شـكل محاولة، وهذا البعد من الذاتية، ينبغي تقديره وتقدير جرأته وقلقه وانشغاله وتوتراته وتألمه وصداقته وخطره، وكان مـن المفـروض عليه أن يسـاجل أولئك الذين يشوهونه، عن إرادة أو عن غير إرادة، « إننا نجد عند فوكو نفسـه مفتاحه: مفهوم « الفعل السياسي » أو الفلسـفة بوصفها فعلا**La philosophie comme acte** وبرجوعه إلى نيتشه، كان فوكو يضع في عمل التشـخيص: مـاذا نكون نحن اليـوم ؟ ما هذا الذي نسـميه اليوم والذي نعيـش فيه ؟ »[49]، ذلك كان هو عمله الفلسفي الخاص.

الفعل الفلسفي مرتبط دوما بالراهن، إن له شكل» أنطولوجيـا الحاضر»، أي» الحاضـر الذي هو قيد الإنجاز فـي راهن ما يحيل على أصـل، على « قرار سـيادي « حيث أولئـك المجرورون فـي راهنه، هم محكومـون بتكراره؛ ينبغي على الفلسـفة بوصفها فعـلا أن تخرجنا مـن التكرار والاسـتلاب في أصل ضائع »[50]. إن « الفعل الفلسـفي هو في علاقة مع لا عودة الأصل، وهو يخلق لا عودة الانفصال عن الأصل؛ إنه في علاقة مع الحد ومع التحول، أي مع المخاطرة »[51]، عمليـة التحول هذه هي مصـدر خوف لدى كل مجال للسـلطة، ولـكل نظام للفكـر أو الوجود الذي يريد الاسـتقرار والخلود، « إن قوة الفعل الفلسـفي تكمـن في أنها مرتبطة دومـا بالحقيقة « أي بصنع الحقيقة والمشاركة فيها عن طريق الفعل**Acte** .

صرح فوكو في عدة مناسبات، وفي الكثير من كتبه، أنه « من دعاة القول بصدق ما يعتقد أنه حقيقة**dire**

43- Ewald F. : « La philosophie en acte » Magazine Littéraire, n° 435, oct. 2004.

44- Ibid.

45- Ibid.

46- Ibid.

47- Ibid.

48- Ibid.

49- Ibid.

50- Ibid.

51- Ibid.

vrai ، وليس ما هو حقيقةdire la vérité »[52]، فإذا نزعنا عنه هذا الصدق في قول الحقيقة بهذا المعنى الذي أشار إليه، فلن نكون قد أبقينا على شيء منه. ينبغي أن نحرص على أن يعاد إليه لمعان حقيقته وبالخصوص أن تعاد إليه تراجيديتهson être tragique . وقد أشرنا بإلحاح إلى مسألة التراجيدياtragédie هذه لأهميتها في فهم، ليس فقط فلسفته، بل في فهم وضعية ومنزلة الإنسان المعاصر.

في فكرة الفعلacte ، هناك طبعا فكرة الإرادة التي تريد أن تكون دائما بالقرب منها، فالإرادة هي في أساسها رغبة وجموح للفعل. كان الهاجس عنده: « لا ينبغي أن يلعب بنا، بمن وبماذا، أنا أو نحن اللعبة ؟ كان هذا هو السؤال الملازم لفوكو، وينبغي دائما تفكيك الفخاخ، فنحن محاطون بالفخاخ التي تحرمنا من حقيقتنا »[53].

نشير هنا إلى مسألة النزعة المضادة للنزعة التاريخية، وأخرى المضادة للنزعة الإنسانية التي اتهم بها فوكو في الستينيات: ما هو مسوغ هذا الحكم إذا كان فوكو لم يفعل في حياته سوى النضال من خلال التاريخ للدفاع عن الإنسان المعاصر؟ بعد فضح كل هذه التكنولوجيا الرهيبة للسلطة، والتي حددت له كل النواميس التي ينبغي أن يمشي وفقها، وأن لا يحيد عنها لتفادي كل ترسانة الإقصاء والقهر التي أعدت من أجل ذلك ؟ مستشفيات الأمراض العقلية والسجون والمدارس والأخلاق وأنماط علاقات الجنس وأشكال الاستهلاك الاقتصادي وأشكال قيم الجمال... الخ.

بعد فشل المشروع التحرري الماركسي، ومحدودية فلسفة الوجودية، وانسداد أفق النزعة البراغماتية في السياسة كما في الفكر، ما الذي كان يعوز الإنسان المعاصر، لكي يخترق قليلا هول الحاضر الذي تقوده إليه التقنية والليبرالية المتوحشة؟

نعتقد أنه كان في حاجة إلى فكر حر وعقل ناقد غير عابئ بالإيديولوجيات، متمسك بالاحتجاج والمطالبة، لكي يدفع الناس إلى التفكير في حاضرهم، وفيما يمكن أن يفعلوه من أجل تفادي موت التاريخ والحقيقة، أي الموت الحقيقي للإنسان.

يقول فوكو: « إنني ذلك المجرب، بالمعنى الذي يفيد، أنني أكتب لكي أغير نفسي ولكي أكف عن التفكير في نفس الأشياء السابقة »[54]، كذلك كان حال نيتشه الذي لم يترك فرصة إلا وتعرض فيها بمطرقته، لكل أشكال الوهم التي أتلفت وجود وتفكير البشر. فلسفة المطرقة هذه التي هزت المسيحية، وتاريخ الأوهام وقوة السلطة، هي ما يشكل أفق كل من يريد أن يستحق موته بين الموتى كما قال عبد الكبير الخطيبي.

وباستطاعة من لا يريد أن يتعب دماغه بقدر قليل من المجهود الفكري، أن لا يرى في هذا المسار المرتبط والغني بالتاريخ والإنسان، مسارا يحض هو نفسه على استعمال التاريخ بمهارة لتأسيس فلسفة سياسية حية ومقاومة، وأن يظل في عقيدته المطمئنة والمقتنعة بأن التاريخ والإنسان قد قتلا، وأن ينشئ من أجل ذلك فلسفة في النحيب.

إذا كان من الضروري لظهور نزعة إنسانية جديدة، يقودها الإنسان بنفسه، وتمتلئ بروح المقاومة والصراع في كل شبكة السلطة، من أجل إنسان حي وممتلك لإرادته ومتحكم في مساره المعيشي والحيوي، إذا كان من الضروري لذلك فكرا تراجيديا لا يعير اهتماما للمسلمات الأخلاقية والقيم الفاضلة التي تدعو إلى إنسانية مجردة حالمة، فإنه من الأفضل حسم هذا الاختيار والقطع مع تاريخ الأوهام والوعود التي حفلت بها فلسفات الوعي والذات والتاريخانية.

## البيبليوغرافيا :


Deleuze G.:» Ecrivain non: un cartographe « in critique, Décembre, 1975.

Ewald F.: « La philosophie en acte « Magazine Littéraire, n°435 Oct.2004.

Foucault M.: « Deux essais sur le sujet et le pouvoir « in parcours philosophique, Gallimard, 1984.

Foucault M. : « Dits et Ecrits » Gallimard.

Foucault M.: « Les intellectuels et le pouvoir: Foucault Michel» Entretien avec Deleuze Gilles, in Dits et Ecrits, Gallimard, 2008.

Foucault M.: « L'ordre du discours « Gallimard, France, 1982.

Foucault M.: « La volonté de savoir « Gallimard, 1976.

Foucault M.: «Résumé des cours 1970-1982 «Conférences, essais et Leçons du collège de France, Julliard, année 1989.


52- Ibid.

53- Ibid.

54- Foucault M. : « Entretien avec Michel Foucault par Trombadori » D. in Dits et écrits, n° 281.